



رابطة الأدب الإسلامي العالمية

مكتب البلاد العربية

٣٠

المفسدون في الأرض

(مجموعة قصصية)

فاطمة محمد شنون

المجموعة القصصية الفائزة بالجائزة الأولى في

مسابقة الأدبيات في رابطة الأدب الإسلامي العالمية

العبدان
Obékan

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

شنون، فاطمة

المفسدون في الأرض./ فاطمة شنون-. الرياض، ١٤٣٠هـ

٢٠٨ص؛ ١٤ × ٢١سم

ردمك: ٣-٩٢٩-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

١- القصص القصيرة العربية - السعودية

أ- العنوان

١٤٣٠/ ٨٣٩٠

ديوي ١٩٥٣١، ٨١٣

رقم الإيداع: ١٤٣٠/ ٨٣٩٠

ردمك: ٣-٩٢٩-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ / ٢٠١٠م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

التوزيع: مكتبة العبيكان
Obeikan

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ / ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

الناشر: مكتبة العبيكان
Obeikan للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ / ٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص.ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

obeikandi.com

المحتويات

٧	ألم هو أم غضب؟
٩	رمادي الذي أبعث منه
١٣	قهوة ونشرة الأخبار
١٩	الحقيقة والكلمة
٢٥	الموؤودة
٣١	المفسدون في الأرض
٨١	ما وراء الخندق
٩٣	اللامنتمي
١٠٩	رحلة إلى
١١٩	حكمة من صبي
١٢٧	من مذكرات هشام بن عمرو بن الحارث
١٣٥	فتاة من كوسوفو
١٤١	البشارة

- ١٤٧ قابيل يلحق بهابيل
- ١٥٣ الشاعر والشمس والقلم
- ١٥٩ الشجرة
- ١٦٥ الصهيل
- ١٧٣ قطيطة
- ١٨١ ذو العينين السوداوين
- ١٨٧ خانتك عيناك
- زوجة قائد:
- ١٩٥ ١- أبو محجن الثقفي
- ١٩٩ ٢- سلمى بنت حفصة
- ٢٠١ ٣- سعد بن أبي وقاص



ألم هو أم غضب؟

إنه كلاهما...

لأن العزيز يتألم في زمن الصغار،

وألم العزيز غضب...

وغضباً ينبغي أن يكون أم عملاً؟

إنه كلاهما...

لأن المؤمن يغضب إذا تطاول الفساد،

وغضب المؤمن عمل...

فيا أيها الألم...

كن غضباً

ويا أيها الغضب...

كن عملاً

لنبنى الحياة كما أرادها الله

عندما استخلفنا في أرضه؛ لنعمرها

بشرعته ومنهاجه...

فاطمة

obeikandi.com

رمادي الذي أبعث منه

حالة ما بين النوم واليقظة، قبل صلاة الفجر، متاهة لزجة مرهقة، قلما أستطيع منها فكاكاً...! أحاول ترتيب أفكاري وتحديد أولياتي لهذا اليوم... هذا إذا لم يكن ثمة حدث مسيطر، ينتزعني بعنف من تلك الحالة، ويستبد بي، مندفعاً من مرجل رأسي فقاعات كبيرات، تتزاحم ثم تتفجر على السطح، مطيحة بكل شيء...

أتململ... ألتجئ إلى الركن الأثير الوثير... الاتصال بالله... حدة تزاحم الأفكار وتداخلها تخفت قليلاً... لكن الذكر يبعثها من جديد، وتضج أقوى، فأقوى... وأكتشف أن الفقاعات الكبيرة قد عادت إلى الانطلاق والتفجر على السطح بصخب وتحذّر...

امتحانات الأولاد النصفية... المجموعة القصصية التي أضع لمساتها الأخيرة... البرنامج التلفازي الذي ينبغي تخصيص وقت لمتابعته... العيد القادم، وشؤونه التي لا بد من الحد الأدنى منها، والهاجس الموجع القاهر... ما يجري من حولنا...

وأهرب شلاء عاجزة إلى ربي من جديد.. أسبح ضد تيار الهموم والأفكار، والمشغل، والفرح.. هذه الكلمة الممسوحة الوجه! يخيل إلي أحياناً أنها لا بد أن تكون موجودة بطريقة ما.. أبحث عنها، وقد أحنّ إلى لحظاتها اليتيمات المتباعدات كشجيرات الصحراء...

الضباب يحاصرني في عملية ترتيب أفكارى... أبحث عن الأوليات من جديد.. عن الأكثر أهمية.. تنبجس صور مما كانت تبثه الفضائيات ليلة أمس في مخيلتي، كما تتوالد القطرات من بين شفتي النبع، تقور وتتراكب وتسيل وتنداح بحيرة، ثم بحرًا طامياً لا حدود له...

الشباب المحمول على نقالة، يسرع به صهاينة في لباس عسكري، وصوت المعلق يقتلع أجزاء وراء أجزاء من قلبي: ثم تبين أن الرشاش لعبة أطفال، وأن الفتى مختلّ العقل...

شجرة النخيل الضخمة، التي أحسست برغبة قاتلة في عناقها، والبكاء حتى الموت وأنا أحتضن جذعها.. شجرة النخيل في بغداد، ووميض القذائف ودويها يتقاطر على الصدر كالحراب المسمومة المتشفية..

جليد العجز ولهيب التمرد يصطرعان حتى التفاني.. لماذا أنا عاجزة من فعل أي شيء؟ طبعاً ليس لأنني امرأة.. فليس من أعدهم رجالاً بأحسن مني حالاً.. الاستسلام واقع أمقته وآباه، ولكنني أعيشه، أعيشه برغم مقتي وإبائي ورفضى.. وتغتلي أحاسيسى من جديد.. عشرون مرة كل صباح تقور تلك الأحاسيس، وتضج تلك الأفكار.. لا بد أن في إمكاني أن أفعل شيئاً.. مادمت مكلفة فلا بد من فعل شيء...

وتصدع روعي: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، ومن قاع المخيلة القصي يلوح شبح فكرة مقبلة، فأهرع إلى ردمها بكل ما يزدحم بالذاكرة، ولكن عنادها يهزمني دائماً، وينتصر للسؤال القاتل: أو لسنا بمؤمنين؟! ذلك كلام الله، كلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. فما ذاك؟!

أقلب.. في مضجعي الشائك الجافي.. أحس طنيناً فظيماً في
أوردتي كلها.. وأهرب مخدرة في محاولة عفووية لإنقاذ الذات.. أفزع
إلى ملجأ «ما يجب».. علي أن أكون عملية، أن أقوم بعمل ما، أي عمل
كان أفضل وأجدي من هذا الاحتراق المجاني غير المجدي...

هكذا أبرر هربي من أفكاري، التي بلغت حدّاً من الإيلام لم أعد
أطيقه.. الامتحانات، وما يتطلبه العيد الوشيك.. هناك استعدادات
ينبغي الفراغ لها.. وتحاملت على غطاء رجل شعوري، أحكمه بكل ما
أملك من قوة، وأنا أمزج مرارتي، ما يسعفني شهد الأحلام من متعة
جلب السعادة إلى أسرتي، وابتسامة الفرح إلى أولادي...

الوح، بدمعة تغور، حتى تشطر القلب شطرين، للشباب المحمول
على النقالة.. لشجرة النخيل في بغداد.. لإيماننا وكوننا الأعلىين.
وأنهض؛ لأمارس القهر اليومي.. لأصنع حلوى العيد!



obeikandi.com

قهوة ونشرة أخبار

خيوط الشمس الأولى تتسلل عبر زجاج واجهة المطبخ، ومؤشر الفرن الصغير يصرف الثواني تبعاً لإعداد كوب الحليب الصباحي.. المقاعد الحمر، والخزائن الجوزية توقظ دفء الشعور، وذكريات الجدوع الهرمة في غابات فاس العتيقة.. وعساليح شجيرة العنب، التي تتدلى من إفريز الباب المفضي إلى الشرفة، تعب الشمس الوليدة، بنهم يبعث النشاط والهمة.. وعلى المنضدة الصغيرة ينتظر كراس وقلم، وإناء مكور، تصور منه زهيرات بيض وحممر. إنه الصباح كما أحب، وقتي.. وقت القلم...

صغير الفرن يؤذن بغليان الحليب. استللت الكوب، وأضفت إليه ملعقة من القهوة المحضرة، مظهر الرفاهية الوحيد الذي أصر على الاحتفاظ به.. تضوع في المكان عبير حميم.. نظرت إلى الساعة، وأنا أجلس إلى المنضدة، السادسة والنصف.. موعد موجز الأخبار، مؤشر المذيع عن يساري مثبت على إذاعة لندن، قاطرة الكذب كما أدعوها، والإضاءة اللطيفة تجلو عيني سطح المنضدة الأحمر، بكراسه وأزهاره وكوب الحليب.. والقلم.

الرشفة الأولى غالباً ما ترافقها دقات (غرينتش)، فلا بد أولاً من إطلالة صغيرة على العالم.. أعرف سلفاً ما يحمله إلي المذيع،

على الأقل أعرف أنه سيكون مؤلماً.. فقد أعطيتي مواصلة الاستماع خبرة بأساليب محطات البث المختلفة وغاياتها، وتذكرت ما قيل ويقال لي دائماً: لا تعولي كثيراً على ما تسمعين وتشاهدين.. كلهم يكذبون، ويشوهون الحقائق لخدمة أغراضهم.. ومللت ترديد الجواب.. أعرف ذلك.. لكن الاستماع إلى الكذابين والدجالين يولد لديك خبرة في معارضة الكذب بالكذب، والدجل بالدجل، فتصل، نتيجة لتحليلك الشخصي، إلى شيء من الحقيقة. ثم إن المتابعة في هذا الخط تبرز الحقائق مهما بذل في طمسها من جهود...

صوت المذيع الرخيم ينطلق بالتحية والتمنيات بصباح سعيد! أحتضن القلم براحتي؛ استعداداً للحوار.. ربما بعد موجز الأنباء، فقد لا تكون ثمة أخبار جديدة...

بدأت الضربات تسوطني، ورشقات الشراب الحارة تفقد طعمها شيئاً فشيئاً، ثم تتحول إلى مرارة تلذع.. وخيوط الشمس الجريئة البريئة تتوغل في، ثم تصطدم بالجدر الداكنة التي تصدها عن القلب والروح.. تتزاحم الأحداث في مخيلتي، تتعانق وتفترق، تتقارب وتتباعد، وتتصاف وتتفاعل.. وترن عبارة زوجي في أذني: يعملون على بث السم، وإحباط العزائم، وتكريس القهر. وأتجاوز السم والإحباط والقهر.. أستند بقوة إلى ظهر الكرسي، وكفائي تحيطان بكوب الحليب.. يا لمرارة الجرعة! لقد تبليت ذات زمان قول إيليا أبو ماضي:

قُلْتُ: ابْتَسِمْ، لَمْ يَقْصِدُوكَ بِكَيْدِهِمْ

لَوْ لَمْ تَكُنْ مِنْهُمْ أَعَزُّ وَأَكْرَمًا

لكنه لم يعد يعزيني.. فالكيد يستفحل، والجسد الأعز الأكرم مزقته المؤامرات والأحقاد والقذائف.. وكما في كل يوم تتراقق قهوة الصباح والقهر.. أشعر شعوراً خفياً أنه الانتقام.. الاستماتة في إخماد شعلة شاء الله أن تضيء الدنيا، فيغرق الباطل والظلم في الظلام. أسلحة الباطل كلها تستهدف حملة تلك الشعلة.. تستهدف كل من ينهض بقبس منها مهما ضؤل...

تراخت راحتاي عن الكوب الدافئ، وأغمضت عيني.. أيتها الشعلة، التي لا يقضي على توهجك الزمان! ما الذي يحول دون حملك بيدي هاتين؟! ماذا يمنعني من التسليح بشعاع منك؟!

المذيع يتحدث عن أطنان القنابل التي تحصد الأرواح، وتسحق ولائد العقول وروائع الإبداع، وجنى العرق المبارك الثمين.. الموت.. هل من الحكمة أن نقدم المزيد من الأرواح طُعماً لنيران الباطل، والمزيد من الشموع والشموس في معابد الظلام؟!

التحرق إلى وضع الأمور في نُصبها، الهيام الموجع المضني بالانتصار للحق، بالثورة حتى التفجر في سبيل حمل شعلته المخوفة المهجورة.. كل ذلك يقوض جدران القلب، ويملاً ساحة الفكر والوجدان بهم كُثيف وإحباط مقيت...

يا شعلة الحق، كيف أحملك دون أن تعاجلني قذيفة، فتسقطين من جديد! وبين الآيتين اللتين تجسدان عذابي وحيرتي: ﴿فَلَا نَذْهَبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ و﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ كانت سكينه النفس تموت وتحيا عشرات المرات في اليوم.. بين ثقل الأمانة

والتحرق المضني إلى امتلاك القدرة على الاضطلاع بها، وتوق النفس إلى نعمة السكينة والأمان في وعد الخالق، أن لا خوف على أوليائه ولا هم يحزنون.. بين هذي الشاطئين تضطرب بروحي وجسدي أمواج كالجبال، تجمع إلى الإحساس بالخطر الوعد بالأمن والأمان...

ليس من السهل التوصل إلى قرار.. ليس من السهل تطبيق الاستنتاج العتيد: أي عمل أفضل من الاستسلام إلى صراع العواطف والأفكار.. أي عمل!! ويحضرني قول رسول الله ﷺ: «الشأن أعجل من ذلك» وأستنتج ببسر، والشأن الآن يقتضي العمل المجدي الفاعل، وبلا انتظار.. أفضل ما يسمح به ذلك الحال...

أفضل وأجدي!.. ما هو الأفضل والأجدي، وكل ما أؤمن به على شفا حفرة من الخطر، وربما الفناء؟.. ما هو الأفضل والأجدي، كيلا تضيع دقيقة من العمر تصلح لعمل ذي شأن؟

كل الأعمال التي يمكن أن تجدي سرايية، يلف الدروب إليها الضباب.. كل صخرة أو جزيرة أو شاطئ، يلوح للعين، زلقاً لزجاً، ملآن بالحراب، مسدودة إليه السبل، مغلقة دونه الأبواب. والصبر على لعق الجراح، وردم الحفر، ورتق الخروق إعدام بطيء، محسوم النتيجة.

الساعة الملتصقة بالجدار تطرف ببلادة تحمل الحريق إلى الأعصاب.. وأنا مقيدة اليدين والرجلين واللسان، طليقة الفكر والروح والرغبات.. أتلهب وأترمد، ينضج جلدي، وأبدل جلداً غيره.. ولا أفكر أبداً في الالتحاق بركب مدمني المورفين، الذي يتعاظم يوماً إثر يوم، حتى غدا تياراً في مثل عرض المحيط، تقاومه القطرات المتمردة،

متشبثة بصخور الشيطان باستماتة، ترى في كل لحظة الدماء النازفة
من جراحها، وهي تتخافق على سطح العباب الهادر، خيوطاً حمراً
ناصلة، سرعان ما تتشتت وتتلاشى، فلا يكاد يصدق أنها نرف القلوب،
من لا تتاح له رؤية الأجساد التي تمجها بصبر واحتساب.

وأجرع ما تبقى من شرابي، وأسكت المذياع، وأغوص حتى الغرق
في الصفحات، فتشرب احتراقي، كأنها لم تشرب منذ الأزل.



obeikandi.com

الحقيقة والكلمة

فرغت من الصلاة وقرآن الفجر مبكرة هذا الصباح، وكنت أغالب كآبة شفيفة تدفعني إلى ما يشبه الانكفاء على الذات، وتجمع شتات كياني الدائم التبعثر هنا وهناك، فأتلذذ بدفع أشبه ما يكون بالآلفة الداخلية أو بهجة اللقاء اللطيفة...

فتحت النافذة على الفضاء الرمادي، الذي ما زال يغتسل بمطر بليد منذ عصر أمس.. كان رأسي فارغاً، وهي حالة من العبث والتسيب لا أرتاح إليها.. ولم أجد الجاذب المعهود الذي يدفع بي إلى ركني الأثير في مطبخي، حيث اعتدت أن أخلو بأوراقتي وكوب القهوة، فأمسك بروح يومي التي أحيا بها ما تبقى منه...

نظرت في ساعتني، واتجهت بلا حماسة إلى التلفاز.. تمام السابعة.. فلا ألتقط نشرة أخبار من محطة ما.. طفقت أستعرض محطات البث المتاحة.. رسوم متحركة غريبة الوجه واليد واللسان.. متطاراف يستعرض أمام جمهور مسطح بطر مشاهد يفترض أن تضحكننا، كما تضحكه.. مغنٍ منتفخ يسوط الذوق، يعتصر حنجرة مخنوقة تسوط الأذن...

أخيراً ها هو ذا مذيع يقرأ نشرة أخبار، متلجلجاً بأخطاء مثيرة مخجلة.. راح يرجمني، بلا رحمة ولا هوادة، بما يجري هنا وهناك من

أحداث، وبما صرح به فلان، ونفاه فلان.. واستسلمت إلى الحجارة التي اعتدتها، فلم أعد أرفع يداً لدرئها عن مقاتلها مني.. كان ثمة كل شيء إلا الحقيقة، تلك الضالة التي لم يعد ينشدها إلا من رحم ربي.

وفوق الحجر المعمد بكل دم ذكي، رحت أحرق إلى جثتها.. كانت هامة تماماً، ومنتشرة تماماً، وقد تبدت كل روعتها التي لم يعد يخشى أعداؤها تجليها، وكانت الدماء لا تزال تسحّ من جداولها الباهرة، وترسم خطوطاً تتلوى وتتقاطع وتتعانق على سفح الصخرة الصقيل اللماع.. وكان الجميع ييكون، وهم يغمسون أصابعهم في جديولات الدم، ويلعقونها بنذالة وجبن وقذارة وتشفّ...

أما أولئك الذين يحترقون أسفاً، فقد كانوا قلة، وكان دخان قلوبهم يتصاعد إلى عنان السماء بصمت، ودون أن يراه أحد.. لأن الحقيقة وحدها ترى مثل ذلك اللهب، وقد ماتت.

وفي هجمة يائسة مفاجئة، تشبه ما يتخلل النزع من صحوات، انتفض الوجدان متمرداً: ما الذي يحبس لساني؟! ما الذي يكبل يدي؟! أي ثمن، يمكن أن أدفع للكلام، أكبر من ذلك الذي أدفعه للصمت!!

وتفجرت في فوديّ نار حقيقية، وهممت أن أفتح النافذة وأصرخ.. ثبطني أنني لا أملك حنجرة قادرة، وأن صوتي يحشرج في حلقي، كلما حاولت رفعه.. وأن نتيجة عملي هذا معروفة سلفاً.

قمعت انتفاضة الوجدان، واستنجدت بكل ما أعرف في نفسي من تصميم وعناد حيال ما أوّمن به، فقد أخضعتني ضرورة اتخاذ قرار ممكن التنفيذ إلى زجر أحاسيسي، بل التكر لها، جاحدة أفضالها

على اليد والقلم.. علي أن أفرغ لخطة عملية، تضع حداً لهذا العذاب اليومي.. لن تنتهي جلستي هذه كما انتهت غيرها.. لا بد من الاهتداء إلى ممر سالك.. لا بد من الانتصار للحقيقة.. حبيبتي الصريعة.. كان يمكن أن تتقدها الكلمة التي أكتم، وستقدها، فهي إحدى أثنيين يمكن إحياء مواتهما.. الحقيقة والأرض.. ما أكبر الشبه! وما أصعب اكتشافه!

انتابني شعور كذلك الذي ينتاب من يتعرض إلى كابوس.. نضال مستमित عبثي ضد أخطار غير محددة المعالم.. مغالبة غير مجدية، ولكن لا بد منها، لعباب غامض وطام، يمتد وينجزر في كل ثانية.. وكما في الكابوس لم يكن من الصراخ بد، وكان الصوت بركاناً يزلزل الأعماق، لكنه ما إن يصل إلى الشفتين حتى يخمد ويغدو عاجزاً أشل، ثم يرتمي بلا حراك، فوق رماد القلب المتفطر خيبة وإحباطاً.. إن لم ينطلق ذلك البركان، إن لم يقذف بحممه ورماده، فسيدمرني لا محالة.

كلمة الحق، لا أملك سواها.. أفضل الجهاد.. فلا أحاول بشكل مجد أن أجد لها طريقاً إلى النور.. لأحاول للمرة المئة أن أنطلق بتلك الشلاء العاجزة، رهينة المحبسين الصدر والورق، المخلفة التي تقيض عينها من الدمع إن لم أجد ما أحملها عليه.. وأستعيد في محاولة عنيدة متأنية مغامرات كلمتي تلك في سبيل رؤية النور، علني أكتشف سبب إخفاقاتها، فأعالجها أو أتجنبها.. كانت تسافر في صناديق البريد، إلى هنا وهناك، ثم تخفي إلى الأبد.. أنفق الجهد والمال في ترقبها، ولا تطل برأسها قط..

كدت أشك في قدرتها، وأفقد ثقتي في حكمي عليها، كدت أخجل من تطاولي واغتراري بها، وألومها على تجملها الذي ضللتني، لولا أن هذا التصنيف المفضوح الذي تمنح بموجبه الكلمات جوازات السفر قد عرّى الحقيقة أمامي.. فكل ما كتبته، وإلى أي اتجاه أرسلته، رأى النور عاجلاً أو آجلاً.. إلا هي، الكلمة التي أتحرق إلى قولها، أبت إلا أن تظل حبيسة بين روعي والورق. فإذا ما سافرت يوماً، فإلى حيث لا يبقى منها إلا الانتظار.. فالذكرى.. فالنسيان.

أشتهي أن أقول: ما أغبى الذين يحاصرون الكلمة! كيف السبيل إلى إفهامهم أن كل أنواع الزنانات والقضبان والقيود، التي ابتكروها عبر تاريخهم الطويل المخزي، لا تملك أن تحيط بها، أو تكبلها.. وعلى الرغم من إيماني بصواب هذا الكلام، لا أجرؤ على إطلاقه، إلا على أنه أمنية شديدة الإلحاح، لو كان لي عليها سلطان لحبستها؛ حفاظاً على ماء الوجه.

لماذا يكون لأعداء الحق جند يتربصون بكلمته، ولا أرى لأنصار الحق جنداً ينصرونه؟! أين هم؟! أين كلمتهم، وقد استبد الباطل بالعالم أو كاد؟! مادمت أعشق تلك الكلمة، ويدمر نزوها في سلاسل الشفاه سكينتي، ويؤرق تمردها خلف أسوار الصدر رقادي، فلا بد أن ثمة الكثير ممن يشاركونني ذلك العشق، وذلك الغليان، وذلك الأرق، فأين هم؟! أين يختفون؟ كيف السبيل إليهم، وكل هذه الحواجز والعقبات والأشواك تعترض الطريق؟!

ما كنه تلك اليد السوداء الحديدية، ذات الأصابع الأخطبوطية الخفية التي تمتد في كل اتجاه، وتتسلل إلى كل زاوية، تسعى إلى إطفاء

الحقيقة في صدر الكلمة، فتتحري باستماتة كل شعاع منها، وتطبق على عنقه، فيتحجر اللهب، وتتجمد الحياة!! من صاحب تلك اليد؟ وإلى كم من الزمن والجهد والمثابرة والتصميم احتاج، حتى وصل إلى هذا الذي وصل إليه؟!

من هذا الذي يقف وراء الباطل بذلك الحرص، وذلك التكاليف .. ويتخذ له ذلك الجيش الذي يغطي عين الشمس من الخدم المسخري الأيدي والأعين والألسن، الممسوخي الذوات، الراسفين في أصفاد العبودية، كل حسب وجهه ولونه وهويته، دون أن يكون لهم من الأمر شيء، ومن الأجر إلا الخسران المبين؟!

كيف السبيل إلى أن يتمرد هؤلاء؟ كيف السبيل إلى أن يعلموا الغيب فلا يلبثوا في العذاب المهين؟ كيف السبيل إلى تحرير أيديهم، ونزع غطاء أعينهم، وحل وثاق ألسنتهم؟

الشأن أعجل من ذلك، فإلى متى، وقد بدأت العيون تزيغ، والقلوب تبلغ الحناجر ونظن بالله الظنون؟ إلى متى، وقد ضاقت علينا الأرض بما رحبت، وضاقت علينا أنفسنا، وأيقنا أن لا ملجأ من الله إلا إليه! إلى متى، والدم والعرق، ولآئى الإبداع، وثمار العلم، تحرق كل يوم، على مرأى ومسمع من الدنيا، ومن المنطق، ومن الحق، ومن نواميس الكون المدوسة المهانة؟! والكلمة في صدري قنبلة موقوتة، توشك أن تقوض أركانها وتمزقه؟!

يا أيها الذين أحبهم، يا أيها الحقيقيون، يا ساكني الكلمة التي لا يسمعها ولا يقرؤها أحد، يا أيها الذين تصنعون الحياة، كما أرادها

بارئها، جميلة نقية خيرة.. يا أيها المكنونون، كاللآلئ في ظلمات الزيف والباطل والكذب والعبث والتسيب والضلال.. منية الروح ولبانة النفس أن أكون معكم، أن أكون مثلكم، أن أكون منكم.. لكنني لا أستطيع أن أمدّ جدائي إليكم، ولا أعرف، ولا أقوى على الوصول إلى عوالمكم النبيلة القاسية، التي حبستم فيها أنفسكم لجهاد الضلال والزيف.

لكنني أستطيع أن أفعل شيئاً.. شيئاً صغيراً يشبه ما تصنعون.. شيئاً فيه نفحة من إبداعاتكم، وبعض من نكهة ثماركم، فيه شعاع أعدكم أن أجاهد ليصير شمساً.. سأتحرى ما غفلت عنه العيون الخبيثة، لأجمله وأجوده، سأبحث عن كل مجيد لأربت كتفه، وسأسعى إلى كل جميل، آخذ بيده في دروب الكمال، وسأمضي إلى كل حقيقي؛ لأكون في صفه ضد الزيف والضحالة. سأسخر كلمتي لمن يعرقون ويسهرون ويعملون، لمن يحبون الخير والحق، ويحملون كلمة الله على بصيرة وهدى، ويكرسون وجودها في الأرض حقاً وعدلاً ونوراً.



الموودة

الدمع الصلب الحارق المتجمع خلف أسوار العينين، وفي أغوار الصدغين، يحجبني عن العالم، يسد الطرقات على الأصوات إلى أذني، ويزحم أقطار رأسي، ويسوط فودي.. أزدرد حجارة اللعاب، فأحسها ترجم القلب والأعصاب، وتسدد لكمة عنيفة إلى رأسي فأترنح، وأتهاوى على أقرب المقاعد.. أحرق في السرير، حيث كنت قبل قليل.. أراها هناك مسجاة بلا حراك.. كل ما فيها فاتن، يسحر القلب. لكنها جثة هامدة...

شلني رعب ليس غريباً عني، فهو يعتادني في مثل هذا الموقف.. كم مرة تستطيع امرأة أن تنتزع أنضر وأحب جزء من كيائها، وتهصره بمثل تلك الوحشية حتى الموت، ثم تحفر له حفرة في الرمال، وتهيلها عليه، وتهض بما تبقى من كيائها، كشبح يغادر قلعة غامضة مهجورة في السراب، متجهاً إلى حيث لا بد أن يكون كيأناً حقيقياً، يعيش بين الناس كما يعيشون! لقد جرب مرات عديدة أن يصرخ فيهم: لست سوى شبح.. لست سوى كيان وهمي، فارغ إلا من الهواء.. ليس لي ملا محكم، ولا قلوبكم، فكيف يفرض علي العيش بينكم؟ سيخافني أطفالكم، على الرغم من أنني لا أملك قلباً شريراً، ولا نيات خبيثة، ولا مطالب لي سوى أن تدعوني وشأني، سيخافونني؛ لأنهم لا يرونني؛ لأنكم علمتموهم الخوف مما وراء أسوار المجهول.

أحس، حقاً، أنني شبح فارغ القلب.. كل ما كان في داخلي وأدته مرة إثر مرة، وكان لا بد أن أفعل؛ لأنني لا أستطيع أن أؤمن له أسباب الحياة.. ومع ذلك، فأنتم لا تدعونني قاتلة، وقد يدعوني بعضكم قديسة! فالقديسة، في عرفكم، مقطوعة الصلة بالحياة، فارغة القلب، شبح أسطوري لا جسد في ثيابه الفضفاضة الغريبة.

الجسد الذي انتزعته قبل أوانه من أعماق نقطة في كياني يشفّ شيئاً فشيئاً، وهو ما يزال مسجى على وسادتي.. أرعيني مرآه يتحول إلى ما يشبه البلور أو الفقاعة، ويتصاعد إلى الأعلى متسامياً مع الهواء، منساباً من النافذة المشرعة.. أرعيني أن يرى خارجاً من نافذتي هذا الكيان الغريب المريب، الذي لن يتعرفه أحد، ماذا سيقول من يراه؟ إنه لا يشبه أي شيء يعرفونه.. قد يتهمونني بالسحر.. ولم لا؟ ألسنت شبحاً؟ قد يكونون محقين.. هل هم محقون؟

التشاغل بالسؤال الذي لا جواب له لم يدم طويلاً. الألم هو الذي يدوم، والألم عذاب ملتهب، لا يفلح معه التشاغل...

ارتعش كياني كله.. أحسست أنني قد أعجز هذه المرة عن حمل جثة وليدتي الخديجة إلى أحضان الرمال.. كنت، كلما وقفت هذا الموقف، أشعر بمثل هذا العجز، لكنه الآن أكثر طغياناً، وأنا أمامه أكثر ضعفاً... لم أجروء بعد على اتخاذ القرار، لكنني الآن واثقة من قرب اتخاذه. فهل أنحمل تجربة جديدة؟

انتابني الرعب من نفسي، وتملكني الاشمئزاز.. هذه البضعة الرائعة، التي نمت في داخلي، وشاركتني الأنفاس والدم والأحلام،

ترقد مطفاة، تنتظر أن أحملها إلى مثواها في العدم. وربما كنت أفكر في أخرى متجاهلة أنها، في الأغلب، تلقى المصير نفسه... لا بد الآن أن أتخذ القرار.

اقتربت من فلذتي، مددت إليها ذراعي، حملتها، حملت عذاب وإحباط البشرية كلها.. كانت باردة.. هوائية.. لا جرم لها ولا وزن، كانت شيئاً لا يسمى.. كانت حزني وفجيعتي وألمي الذي بات لا يحتمل.

أردت أن أضمها إلى صدري، أعيدها إلى حيث كانت قبل قليل، لكنني لم أفعل.. لا يمكن أن أفعل.. لم أعد الرحم الصالحة لاحتوائها، فأنا لا أملك لها أسباب النمو، لتولد وترى الحياة.

تلفتت، وتسربت من بين ذراعي، وتهادت متموجة في فضاء الغرفة.. انصرفت ذراعي على أضلعي كالعصي، واندفعت مستميتة أستعيدها من الفراغ، حيث تسبح.. لم أقوَ على التسليم بأنها ماضية، وبأنها انتهت، وإن كنت ما أزال أراها، وربما ألمسها.. مضت قبلها فلذات، شيعتها، كما أفعل الآن، لكن الألم الآن أكبر.. لقد قررت أن تكون آخر مآسي في هذه الحياة...

حتى العذاب الذي يرافقنا طويلاً، نشعر بشيء من الوحشة، عندما نودعه آخر مرة؛ لأن جانباً من حياتنا وكياننا يتوارى إلى الأبد، سابقاً ما تبقى منهما إلى الحتم الآتي لا محالة.

جفت الدموع.. لم تعد تتفجر لامبالية بي.. ربما لأن الأشباح لا تبكي.. أجل ينبغي ألا أبكي.. فلا يمكن أن يبكي شبح؛ لأن الدمع دخان يطلقه حريق، وما في أعماق الشبح ما يحترق...

تطاولت باسطة ذراعي، وجعلت أدور حول نفسي مضطربة، في أرض الغرفة، أحاول الإمساك بها. ظلت تهوم فوق رأسي، وفوق متناولي، وهي تبثسم لي ببراءة موجعة.. بدت كأنها تلهو، لم تكن تتألم، فما كنت بالأم التي يؤسف لفراقها.

قد تكون رقت لتوسلات عيني، وقد تكون تعبت، فأمكننتي من نفسها.. ارتمت بين ذراعي وصدري، كخنجر مفلول، في كف قاتل متشفئ لئيم، فحملتها بعيداً عن صدري، حملت أجمل ما في حياتي، كما يحمل المرء كتلة من شوك يتحاشى أن تمس جسده...

لا معنى للبكاء.. لا بد من إنجاز العمل.. لم يعد يعذبني ويمضني أنني ماضية إلى دفن أجمل ما في حياتي.. هل من الضروري أن يملأ الحياة شيء جميل؟! لن يكون ذلك ضرورياً بعد الآن.

أخيراً ولد العذاب القرار الذي خلته أقسى ما في الوجود.. ما هو أقسى منه سهل ولادته.. ثم إن الأشباح لا تحتاج إلى ما يملؤها، جميلاً كان أوقبيحاً. وهذه ميزتها الكبرى.

الرمل الأصفر الحار، كمجروش الزجاج، أسال الدماء من بين يدي.. تشققت أصابعي، والحفرة ما تزال قليلة العمق، والجسد الأثيري يتضوع من حولي، فيصيبني الذعر من تلاشيه في الهواء قبل إنجاز الحفرة، وكان ذعرًا مزدوجًا، الذعر مما أقوم به، والذعر مما قد يحدث.

لم يكن من حسم الموقف بدّ. حتى لو أن الحفرة غير كافية فلا بد من إنجاز العمل، فأنا أفرق من عودة الألم المثبط المقعد.. وقراري الوليد ما زال ضعيفاً، أخشى ألا يحتمل وطأة الموقف.

انصاع الجسد الأثيري الرائع إلى يدي المجرمتين غير مبال..
فوضعتة في الحفرة، ورحت أهيل الرمل فوقه مهتاجة، ممعنة في
الضغط براحتي وبأصابعي، كأنتي أتشفى في منظر الجراح وطعمها..
كانت روعته تتسرب من بين حبات الرمل، فأهرع إلى دفنها بوحشية
وهلع.. ورحت أطلق صراخاً عشوائياً بكل ما في كياني من تباريح الألم
الدفين.

الأشباح تصرخ.. لعل الصراخ هو كل ما تفعله.. مزق الصراخ
حنجرتي.. مزق قلبي.. أنفاسي تشظت كجذل شديد الجفاف يحترق.
ومع آخر شعاع من الجمال الذي دفنت اختفى صوتي تماماً، دفن هو
الآخر..

كانت رهبة وحشية تتربص بي، في الأفق، وفي الأرض، وفي
السماء، وفي داخلي الخاوي كوادٍ مخوف سحيق، وكان عالم لا حدود له
من العبث وعدم الجدوى يفتح لي أبوابه على مصاريعها...

هل يصلح هذا العالم للحياة إذا ما دفنا آخر أشواقنا؟!

وقت طويل مضى، وأنا جاثمة أمام الجذث الصغير.. أعماقه
القصية في مثل سعة الخيال والتصور، لكن جدرانته تميل بشدة
مقاربة، حتى تتجاوز حافته، وتلتقي في نقطة واحدة.. في الصميم
من الروح...

الحدود القصوى والقصية للألم والعجز، كان لا بد من أن ترد
دخان احتراقي إلي.. أحسست بالدموع تقطر على نحري وركبتي
المدماة، وتسيل ممتزجة بالسائل الوردي النازف.. ملح الدمع ألهب

الجراح.. كم من الدمع يجب أن أذرف لتلتهب الجراح إلى درجة النسيان؟.. لتجرف كل ذلك الألم!

تلفت.. كان كل ما في وما حولي صحراء...

هنا كانت تبدأ نقطة الرجوع في كل مرة.. وهومت في الأفق البعيد
ذكريات مبهمة.. ذكريات! كيف؟ وقد كانت ذات يوم العمر كله!

وكما في كل مرة، وكأن الأمر لا يختلف وسابقه، برزت من
أقصى نقطة في الأفق. وانداحت كعادتها تمامًا، فغمرت الرمال كلها،
وأغرقت الحدث الصغير، وطمت حتى غمرت ركبتني.. أحسست أنني
أفقد توازني ووزني، وأنا محمولة على صفحة شفافة رقراقة، معجزة
بنعومتها وقوتها وطغيانها.. مال جسدي المتهالك الضامئ إلى القرار
مستسلمًا، وصمت كل شيء.. الجراح والدموع والألم.. صمت كل شيء
مستسلمًا مثلي.. إلا همسها الدافئ الرحيم.

وتلفت من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، فلم أرَ غيرها إلا
السماء.. غمرتني بجراحي ودموعي، تخللتني إلى أعماق ترزح تحت
أطباق متصلة من الألم والدمع والفجيرة.. أرغم سلطانها المهيم
الرؤوف كل شيء، وخلا بالروح خالصة نقية، كما أبدعها خالقها.

كنت في حاجة إلى الأمان والدفء، إلى ما هو فوق الأشواق
والأمان، إلى ما هو فوق الرغبات والحاجات، إلى رحمة ربي التي
تداركتني عندما أقفرت دنيائي إلا من الفجيرة والعذاب...



المفسدون في الأرض

قبل أن يصبح العالم كما نعرفه، وفي منتصف ذات ليلة، حيث كل شيء صامت ونائم، ومن أعالي المرتفعات المشرفة على الصحارى المقفرة، كان باستطاعته أن يميز بقعة أكثر سواداً، تضطرب زاحفة إلى الشمال الجغرافي، بقعة صامته تتقدم بدأب يلفت الانتباه. حتى إذا ما بدأت الشمس تتناول من خلف قوس الأفق، لتكشف تلك الأصقاع، التصقت بالأرض، وتململت فكادت تغمرها الرمال، وتموتت حتى سويت بالصفرة الطاغية، ولم تعد عينه تستطيع التقاطها، فانصرف إلى الاستمتاع ببهاء الشمس يغمر الدنيا، طارداً صورتها من الذاكرة: كيلا يفسد متعته بذلك الجمال البهي.

فإذا انسحبت الشمس وغابت، حتى عاد السواد يملأ الأنحاء، بعثت تلك الحشرة اللزجة، كما دعاها، واستأنفت بإصرار مثير الزحف الصامت الدؤوب.

كان طبيعياً ألا يمضي ليله كله في مراقبة حشرة، فقد كان يأسره جمال القمر، وسحر النجوم، وكان يجد لذة كبيرة في إحصائها، وتخيل مشاهدة ممتعة من تشكيلاتها، وابتداع أشكال أكثر إمتاعاً... وكان له الحق في ذلك، فقد كانت النجوم آنذاك أجمل منها اليوم، كما كانت الأرض في حالة أفضل، إذ كان في مكنة الطموحين أن يفكروا في مشروعاتهم الخاصة، دون أن يحسبوا حساباً لموضعها من النظام العالمي...

أكثر من مرة قرر أن ينزل من معتمصه؛ ليحدد موضع تلك الحشرة المريبة، ويكشف حقيقتها، لكن أمورًا أخرى كانت تحول دون ذلك. والحق أن أكبر تلك الأمور وأصعبها كان القدرة الهائلة لتلك الحشرة على التخفي والتستر، وإصرارها على التماوت، مادام شيء من خيوط الشمس، مهما ضؤل، مسلطاً على مكانها.

أثارت الحشرة فضوله، ثم غضبه، فهو بين الحين والآخر كان يعيد حساب المسافة بين النقطة التي رآها فيها أول مرة، وموقعها الحالي، فيرى أنها قد تقدمت بشكل ملحوظ، كأنها تسير إلى غاية محددة.. وكان يحدث نفسه: لن تستمر في التقدم حتى تسقط في الفراغ المخوف المجهول، فهي لا تبدو بلهاء بهذا القدر...

كان في وسعه أن ينزل من مرقبه في النهار، ليقف في نقطة محددة، حتى إذا ما حلّ الظلام، وبرزت الحشرة المثيرة، وراحت تتقدم، اصطدمت به، فاستطاع اكتشاف ماهيتها، لكنه كان يقول لنفسه: ولم أفعل؟ لم أكلف نفسي هذا العناء الذي قد ينطوي على خطر؟ إنها تتقدم فقط.. وماذا في ذلك؟! حتى لو كان هذا الأمر لا يروقتي، فإنه لم يثبت لي يقيناً، أنه ينطوي على شيء من الخطر. ولم التفكير في الأمر، وليس في وسع تلك الحشرة الصغيرة أن تفعل شيئاً يذكر؟! فلتتحرك كما تشاء. فليست أكثر من حشرة ليلية بشعة تزحف، وليس علي إلا أن أطأها بقدمي.. متى رأيتها في طريقي.

والحق يقال، فقد شغل صاحبنا بأمور جسام أخرى، غير مراقبة النجوم، والتغزل بحوريات البحار والغابات، فكان طبيعياً ألا يهمله كثيراً،

مع أنه قد لفت نظره في حينه أن الحشرة قد توقفت في نقطة الوسط من أراضيه، وإن كانت لا تزال تختفي بطريقة لم يستطع إدراكها، كلما أشرقت الشمس.. ولعلها أراحته بذلك من القلق بشأن وجهتها.

شيئاً فشيئاً صار يلاحظ أنه قد صار لتلك الحشرة موضع ثابت في ذاكرته، وإن كانت في الذيل من قائمة الاهتمامات، التي غدت تشمل القتال والشعر وملذات أخرى، فما مدّ عينيه في ليلة أنس أو وحشة، إلى ذلك المكان إلا اصطدمتا بها.

زمان طويل مضى، والحشرة، كما اعتاد أن يدعوها، تهرب من ضوء النهار إلى حيث لا يدري، فإذا جنّ الليل راحت معالمها تتضح شيئاً فشيئاً، كأنما يلدها الظلام..!

ولا يعرف متى غيرت عاداتها تلك، فهو لا يتذكر آخر مرة طلع فيها النهار على مكانها دون أن تظهر.. إنها الآن موجودة، والشمس تملأ الأرض كلها، وأمس كانت كذلك.. وتساءل: منذ متى وهي تظهر في وضوح النهار؟! ولم يهتم كثيراً؛ لأنه لم يجد للجواب أهمية.. فهي ليست أكثر من حشرة كريهة في أسوأ الأحوال!

وذات يوم فطن إلى تطور جديد في حجمها، لقد غدت أكبر! مع ذلك لم تزل غير ذات بال.. حتى لو أنها غدت.. وحشاً.. فالأرض مملأى بالوحوش.. حقاً إنه لم يرق قط وحشاً يمثل ذلك السواد المنفر، ولكن هذا لم يخفه، فهو أشجع من أن يخاف وحشاً جاثماً دون حراك، ولا سيما أنه مازال يعتقد أن في وسعه التخلص منه متى أراد.. بل إنه سيفعل حتماً.. متى اقتضى الشأن ذهابه إلى هناك.

ما أسرع ما تضاعف حجم الحشرة! حتى غدت وحشاً حقيقياً، وإذ ذاك كان لا بد من التفكير في السبب، فالوحوش لا تصل عادة إلى مثل ذلك الحجم.. لا بد أنه وحش لا يعرفه، أو أنه لم ير مثله من قبل، وحش ينمو بشكل غير مألوف. ولم يخطر بباله أن يتضخم أكثر من ذلك، فضلاً عن أن يخطر بباله أنه قد يتضاعف عشرات، بل مئات الأضعاف، وإلا كان أحسّ بالقلق.

بعد مراقبة فضولية طويلة مشوية بالدهشة، اهتدى إلى سرّ ازدياد حجم الوحش الرابض، إنها هياولات سود، تتجمع من هنا ومن هناك.. وحقق باهتمام، بذل أول مرة جهداً في اكتشاف ما يجري. كان، من قبل، إذا لم يحرق اختفى المشهد، قبل أن تلتقط عيناه تلك الدقائق السود الكريهة، تتقاطر إليه بكثافة.. كانت تبدو له من مرقبه العالي كأفواج الذباب، لكنها لم تكن تتشتت قط، بل تتقارب وتتقارب، حتى تصل إلى حيث الوحش، فتلتصق به، وتهدأ حركتها إلى أن تتلاشى.

مع ذلك لم يبلغ به القلق حدّاً يدفعه إلى دوام المراقبة، كان قلقاً فحسب، فهناك شعور راسخ، لم تخطر بباله مراجعته.. ليس في الأمر خطر، وحتى لو كان ثمة خطر، فتجاوزه لا يحتاج إلى استعداد، ولن يكلف أكثر من أن تقتضيه الحاجة.. وحتى لو أن هذا الوحش قد بقي هنا، حتى لو أنه ظل يتضخم إلى ما لا نهاية، فهو لا يعدو كونه وحشاً جاثماً بلا حراك.

كانت أوقات سعيدة وجميلة كثيرة قد مرت به، لم تنغصها مراقبة الوحش الملتصق بالأرض، حتى غلب على ظنه أنه لا يتحرك، أو أنه دائم النوم، بل ربما كان ميتاً. ومن يدري؟ فقد يكون مخلوقاً كالنبات،

ينمو، ولا يتحرك. وأسعده أنه لم يعكر صفو أوقاته بالنزول من معتمصمه، ومحاولة اكتشاف كنه ذلك الكيان الأسود البشع، فضلاً عن محاولة طرده أو محاربته. فهذا هو ذا وكأنه ليس موجوداً، يربض بصمت، كأحد الجبال، على شاطئ البحر. حقاً إن مظهره يمحو الكثير من جمال ذلك الشاطئ اللازوردي المضيء، ورواء ونضرة تلك المرتفعات الخضراء، التي يختلط بريقها ببريق المياه، لكن ذلك لا يستحق بذل عناء، فالجمال ما زال الغالب والمسيطر.

وشيئاً فشيئاً، بات يلاحظ، في متاهات وسنه، أن تلك البقاع قد بدأت تستحم بنور بهي، من نوع مختلف عن نور الشمس أو القمر، ينبعث من حيث لا يرى أو يعرف، ثم ينتثر على الأرض هناك، وينداح كمياه البحر البيضاء المضيئة، فيغمر كل ما حوله. وعلى هدى ذلك النور اكتشف بلامبالاة عجيبة، أن للوحش جرماً أكبر مما تسمح به الرؤية من بعيد، فهذا هي ذي خيوط النور الوهاج تمتد في كل اتجاه إلى مسافات بعيدة، أما باتجاه الوحش، فهي تتكسر، وتنعكس شبه عمودية، مشكلة جداراً عالياً، يسمح ضباب البحر بتمييزه، وهو يكاد يتلاشى، قبل أن يبلغ أعلى ظهر الوحش الهائل.

حمل ذلك شيئاً من الرهبة والهم إلى قلبه، وأحس على نحو مبهم أن هذا قد يستمر، قد يتحول ذلك الكيان الكريه إلى شيء ثابت.. إلى جبل..! خفف ذلك التصور من حدة توتره، فإن جبلاً يضاف إلى جبال المنطقة لن يكون شيئاً إلى هذه الدرجة، ولا سيما عندما لا تكسوه الخضرة، ويلف قمته الضباب.. لا بد أنه سيتحول إلى جبل، فلا يتكسر النور هكذا إلا على الصخور.

قبل أن يستطيع إقناع نفسه بتفسيره لانكسار النور على خاصرة الوحش، بدأ أمر مسل يفرض نفسه، كان مسلياً ومريحاً.. فقد بدا النور كأنه يتصدى للوحش.. لقد كان مصيباً في عدم تنغيص متعته بالنزول إلى هناك، فها هو ذلك النور الذي لا يعرف كنهه يتصدى له..

«يتصدى»! ليست الكلمة الصحيحة، فالوحش هو من يتصدى.. على كل حال.. النور يبدو قوياً ووهاجاً، ومنبعه يتسع شيئاً فشيئاً، وأشعته تصل إلى المزيد والمزيد من بقاع الأرض، حتى إن بعضاً منها قد وصل إليه، وإن هو لم يتجاوز ذيول المرتفع الذي يعتصم به.

هذه القياسات والمراجعات شغلته عما جرى، وفي لحظة خاطفة، هناك.. وعندما عاد ينظر، كان الوحش يجثم فوق بؤرة النور..! لقد فاتته اللحظة الأكثر أهمية: هل صعد الوحش فوق النور، أم تغفل النور تحته؟!؟

أحس بقشعريرة ورهبة، وانمحت تماماً كل تصوراته السابقة، واستسلم إلى الواقع المذهل.. أي كيان بغيض هائل الذي يراه؟! عن ماذا سيسفر هذا الواقع الجديد؟!؟

تساؤلات دغدغت عقله، خرشت صفحة بحيرة تفكيره الصقيلة الساكنة، لكن دفء الشمس في الاعتدال حمل إلى جفنيه نعاساً، وجد فيه ملجأ من حالة غير مريحة.. فتمطى واستسلم إلى النوم!

لم يكن نومه مريحاً، فقد راحت أحلام غير جميلة تنغص عليه صفورقاده.. حلم بالوحش الذي لم يبق وحشاً.. بالنور الذي أحس فجأة بالقلق عليه.. بأولئك الذين يقتتلون في الفلوات المضيئة البهية، عند

أقدام مرتفعة.. حقاً إنها اشتباكات صغيرة متفرقة، لا تستحق الذكر، لكنها تحمل إليه الامتعاض نفسه الذي سببه تداخل ذلك الوحش البشع بالنور هناك.. لماذا تحدث كل هذه المنغصات المملة هنا؟!

عندما فتح عينيه بعد نوم طويل، حولهما، كما اعتاد أن يفعل منذ زمن بعيد، إلى حيث الوحش والنور، واتسعا شيئاً فشيئاً لتطرد آثار الوسن المرهق الذي يشمله.. وفاجأه ما رأى.. كان سطح الوحش الداكن يتشقق وتبرز منه حزم النور.. يتشقق أكثر فأكثر.. وحزم النور تبرز أكثر فأكثر..

زفر بارتياح، وهز رأسه بثقة.. مرة أخرى يكتشف أنه على حق؛ لأنه لم يدع ذلك الوحش «التافه» يقض مضجعه، لقد كان يعلم.. «يعلم»!! ليس تماماً.. «يحس».. أيضاً ليس تماماً.. لعل الفكرة قد ولدت الآن.. لا بأس، فهاهو ذا من يتولى القضاء على الوحش، قام عنه بالمهمة محاربون أشداء، مازالوا يمزقون ظهره بدأب؛ لفتح المزيد من الشقوق التي يتسرب منها النور.. هل يمكنهم القضاء عليه؟ هل يذيبه النور؟

لبث طويلاً يراقب بفضول: الأمور تحلّ من تلقاء نفسها.. أو هكذا تظهرها المسافة الشاسعة.. أمر كان لا بد أن يحدث بشكل ما.. عن ماذا ستتجلي تلك المعركة؟!

لقد انجلت.. من تلقاء نفسها، وهو ما توقعه تماماً، الوحش تفجر.. تبددت شظاياه السود، حتى تلك التي لم تنصهر، وتغلغل في شقوق الأرض، نبذت في كل اتجاه، وسقطت في رمال الصحارى، وعلى سفوح الجبال، وفي مياه الأنهار والبحار، وتقاذفتها الرياح في كل اتجاه..

الآن عاد إلى ذلك المكان رواؤه، والنور البهي أطلقه المحاربون من جديد في كل اتجاه، أطلقوه خيوطاً مديدة وجميلة، تشف عن صفاء البحر وفضته إلى الغرب، وذهب الرمال إلى الجنوب والشرق، وبريق ثلوج القمم في الشمال.

جمال الأرض، وبهاء النور المقدس، والأنفاس الطويلة العميقة الشافية، كل ذلك انعكس على أحلامه الواسعة راحة وسلاماً، فتحول بعينه عن تلك البقاع بعد زمان طويل، وراح ينشد الجمال في مكان آخر.. كل شيء عاد جميلاً، بل أجمل مما كان. واطمأن قلبه في مضجعه: لن يصيب تلك الأرض سوء.. إنها قلب الأرضين وأجملها.

وعاد يذمّن التأمل.. الرمال الذهبية المصقولة، ذات بريق ذهبي يخطف الأبصار.. كشمس الغروب.. كالسائل العسلي الذي يقطر مضيئاً صافياً من قفز تلك الحشرات الطنانة عاشقة الأزهار.. حقاً إن أولئك يقتتلون دائماً، هنا وهناك، ينغصون عليه متعته بذلك الجمال، لكن الرمال سرعان ما تبتلع جثثهم المتفسخة. ثم يولد آخرون غيرهم، يكونون غاية في الجمال، قبل أن يعرفوا كيف يقتتلون.. يقولون: إنه لا بد من ذلك.. لا بد!.. هم أدرى بشؤونهم، ثم إن ذلك يجب ألا يخدش تلك الصفحة الذهبية الصقيلة الرائعة..

والآن، وقد طال به الزمن، واعتاد ما يراه ويسمعه، نسي تماماً ما كان وما حدث. وكما لم يستطع قديماً اكتشاف أول مرة رأى فيها شبح البقعة السوداء، التي قدمت إلى القلب من أرضه، ثم تحولت إلى وحش بغيز، حاربه النور وفجّرهُ، ونثر أشلاءه، فابتلعها رمال الصحراء،

كذلك لم يتبين متى بدأت تلك الشظايا السود الدقيقة تبعث من الرمال، وتتقلب وتتشكل وتتراص، وتعود حشرة لزجة، تمامًا كذلك التي بدأت زحفها ذات يوم من الجنوب.

أحسّ بالامتعاض والسأم.. وأثار ضيقه أنه قد يشهد تكرار أحداث ليست ممتعة.. فها هي ذي الحشرة السمجة تظهر من جديد. وقرر، كواجب ثقيل، أنه يجب وضع حدّ لهذا، وتساءل وهو يتمطى..: هل ينزل إليها فيطوؤها؟ ثم غلب على عزمه أن يبقى في مكانه، فلن تفعل أكثر مما فعلت من قبل. فلتقم في أي مكان، ولتتضخم كما تشاء.. ثم لتغدّ وحشًا كالجبل، ولتتشبث بالأرض.. أي سلالة من الوحوش تلك!! إنها كالليل، مهما طال فلا بد أن يطرده نور الشمس. وقد طردها من قبل هناك، ولا بد أنه سيطردها أينما أقامت.

وابتسم شديد الإعجاب باستنتاجه الذكي، الذي يضمن له لذة النوم، وصفاء الأحلام، فمهمته الأولى أن يرصد الأحلام في أقوال جميلة.. إنه العمل السامي الجدير بصاحب تلك الأملاك، المتربعة في القلب من الأرض.. فليحدث ما يحدث، فكل شيء عابر.

هذه الاستنتاجات لم تمنعه من تفقد الحشرة في زحفها فوق الرمال، فهو كشاعر، يمتلك نفسًا لطيفة، وشعورًا مرهفًا، يجعلانه محبًا للصفاء، كارهاً للبقع والحشرات المؤذية، متحيفًا للفرص، أو مترقبًا ذلك النور الذي يحوها، أو السيف الذي يقصمها.

أخيرًا استقرت الحشرة.. كان ثمّ الكثير من النخيل والناس، في صفحة مترامية من الرمال. هذه المرة تغلغت بين جذوع النخيل،

وتمددت كالهلام اللزج، فافترشت الأرض، حتى لم تعد تشفّ دوائر الخضرة المتراصة عن صفرة الرمال، بل عن سواد الحشرة.

وتساءل: هل تغدو وحشاً هنا كما غدت هناك؟ واستنتج مجدداً بحصافته، أن ذلك الوحش الهائل الذي مزقه النور قد تحولت مزقه إلى وحوش صغيرة، اختارت لها أماكن متفرقة من الأرض. ولم يسوئه كثيراً أن أرض النخيل كانت إحدى تلك الأماكن، فالنخيل يعلو ويزداد خضرة، على الرغم من أن الأرض من تحته يكاد يغطيها تماماً السواد البغيض، وعمّا قليل سيطول السعف ويغلظ أكثر، فيعفيه من رؤية كل أثر للبقعة تحته.

الأهم من ذلك كله، تلك التحركات التي راحت تبرز أكثر، فأكثر في منبسطات الرمال.. لقد ازداد أولئك الذين يقتتلون عدداً، وراحت أرض النور على ضفاف النهر المتألئ تعج بالمحاربين القادمين عبر البحار، وتخوم الصحراء الشمالية تعجّ هي الأخرى بالمحاربين القادمين من خلف الجبال..

فكر، وهو يتشاءب: أبناء الرمال يقتتلون، ويقرضون الشّعر، ويتوالدون وهم محصورون في تلك الصحراء التي تحيط بها البحار والجبال والأعداء من كل جانب دون أن يخطر ببالهم غير التنافر والتناذب، لا يجمعهم إلا ذلك البيت العتيق الذي تحفّ به الجبال السود، يأتونه رجالاً، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق؛ ليدوروا حوله ويشهدوا منافع لهم.. هناك، وعندئذ فقط، لا يقتتلون...

إنه لا يذكر متى قام هذا البناء المربع المغبر الجليل، فهو ما انفك يراه ويراه.. كأنه أقدم شيء فوق هذه الرمال.. ومن أعماق الذاكرة

الموغلة في الزمن، استطاع أن يستحضر تلك القلة المظفرة، التي تحدّت متاهات الرمال ولهب الشمس، تاركة وراءها رواء السواحل، وخصب السهول، وخضرة الضفاف؛ لتقيم عند هذا البيت مع أبناء الرمال المتناحرين أبداً، والذين ما انفكوا يجيئون من فلواتهم، في مواقيت ثابتة، ثم يتفرقون ليستعدوا للاقتتال من جديد..

وانتبه إلى أنه بات كثير الانشغال بأبناء الرمال، وذلك البيت.. وعندما كانت الحشرة اللزجة القابعة هناك تعود إلى ذاكرته، كان ينقب بعينه من مرقبه بين النخيل المتطاوّل، ويحدّ بصره ليكتشف أنها لا تزال هناك، تتسع وتتداح متطامنة ملتصقة بالأرض، تظلل نفسها بالمزيد من النخيل والخضرة والسيوف والذهب!! لتخفيها عن عينيه..

وفي كل مرة من تلك المرات التي كان يتذكر فيها البقعة البغيضة كان أبناء الرمال ينتزعونها من ذاكرته.. ليس انتزاعاً تاماً.. فهو يدرك على نحو مبهم أنها هناك.. وأنها، وإن لم تفعل شيئاً ذا بال.. لطخة سوداء قبيحة تعكر بريق السهول ونضرة النخيل، حتى وهي مختفية تحت قشرة الخضرة التي تلتحفها.. ليست مختفية تماماً.. فهو يستطيع رؤيتها بوضوح تام إذا ما أمعن النظر وأحدّه..

وكان يتهرب من هذه الحقيقة، ويحاول الاكتفاء بنظرة سطحية غير منقبة؛ أملاً في قطع خيط ملحاح من القلق، يتلولب بإصرار سمج أمام الصور في المخيلة، والأفكار في الرأس. ولم يدرك في خلد التساؤل عن سر خيط القلق ذاك، كل ما يحضره ذكريات عتيقة شبه مندثرة

عن الوحش البغيض الذي دكَّه النور على السواحل الغربية. ولا يستطيع أن يمحو من ذاكرته أن تلك البقعة الهائلة بعض من شظاياها، وهي، وإن كانت لن تتحول إلى وحش آخر، جزء منه، بكل ذكرياته السلبية.. والحق أن استكانتها هكذا، وجرمها الذي لا عمق له أرجعنا القلق إلى المرتبة الثانية في زخم ذلك التغيير الذي راحت عينه تلتقطه وتميزه في حياة أبناء الرمال، فقد لاحظ أنهم بدؤوا يخرجون عن رتوب حياتهم شيئاً فشيئاً..

حقاً إنهم ما انفكوا يقتتلون بالسيوف وبالألسنة، لكنه يستطيع القول اليوم: إنهم يتكتلون. تكبر تجمعاتهم النادرة المتناثرة في قلب الرمال، ولا سيما تلك التي بين الجبال السود، حيث يقوم البيت العتيق، وفي أرض النخيل حيث تنداح تلك البقعة البغيضة..

تجمعات أبناء الرمال الصغيرة تزداد وتتضح، وتزحف بخطوط شبه ثابتة، وإن كانت ناصلة وصفيقة، إلى أرض النور على شواطئ البحر المتلائي، وإلى جبال أقصى الجنوب الداكنة الخضرة، ذات المياه الثرة، وإلى المدائن العريقة الخصبة في أقصى الشمال.. أبناء الرمال لم يعودوا مسجونين في جزيرة الرمل.. مع ذلك، فهم ما انفكوا يقتتلون ويتفانون.. ووجد نفسه يتساءل: إلى متى؟!

أول مرة يعييه الإحساس بالزمن، وانتظار ما سيكون.. حالة غريبة وغير مريحة.. كان من قبل يقتصر على رصد الأحداث والتفرج بها، وإن لم يخلُ الأمر من بعض المنغصات والمسرات. أما اليوم، فثم شيء جديد يفرض نفسه، شيء مرتبط بما تحدثه تحركات أبناء الرمال..

لم يعد نومه هنيئاً.. تواتر صحوه بشكل مفاجئ على ضجيج أبناء الرمال.. لم يكونوا صامتين من قبل، لكنه كان قد اعتاد على صخبهم القديم، فهو يغفو ويغط في نومه وهم يصخبون، ثم يهدؤون ثم يعيدون الكرة في منامه وتحت سمعه وبصره.. أما الآن فقد تبدلت الحال.. تبدل نوع الصخب.. أيقظه من نومه مرات ومرات.. فلا بد إذاً أن يقلقه الأمر، فهو يشعر بطريقة ما أن ثمة ما سيحدث.. أبناء الرمال مقبلون على أمر ما، كل ما يراه يشير إلى أن تلك القفار ستشهد حدثاً يبدل الحياة فوقها.. لم يقلقه الأمر على الرغم من كونه قد أتعبه، ونقص عليه شطحات الخيال الراتبة المتأنية، وأثار فيه فضولاً مرهقاً، يقضي إعمال الفكر بعد طول ركود.

حدس شديد القوة راح ينبض في فكره الفتى الناشط.. لا بد من حدث ما.. حدث غير المعارك الفعلية والكلامية، لا بد من حدث يوقظ أبناء الرمال، ذلك الشيء الذي استيقظ فيه، ذلك الذي دعاه همماً.. كان يحمل شعوراً سلبياً لكل ما ينقص عليه استرخاءه ودعته. أما اليوم، فثمة شيء جديد يغزوه.. إنه يتلذذ بذلك الهم الذي ينال من متعته الأزلية. حتى الصداق الذي يحمله إليه إعمال الفكر بات يستعذبه!! لذاذاته باتت من نوع آخر.. باتت أكثر عمقاً وأدوم أثراً، أحس أنه يحمل شعوراً مبهجاً ومنشطاً، شعوراً بتقدير ذاته وقيمتها، وأن هذه الذات لا بد أن تفعل شيئاً يليق بما تحظى به من قدرات.. إن الهواء الذي يتنفسه، والشمس التي تتخلله جديران باستخراج شيء ما من كيانه، إن لوجوده غاية.. ولا بد أن يكون شيئاً ما غير المتفرج والمنفعل، لا بد أن يماهي النور والهواء، أن يعطي كما يعطيان.. إنه قادر على ذلك.

تحسس عينيه.. جربهما في رؤية أبعاد أخرى غير تلك التي كانتا تقفان عندها، فوجدهما مطواعتين. رأتا ما لم يتوقع أن تريا، وتحسس ذراعيه، فوجد فيهما قوة لم يكن يتصور وجودها.. إنه شعور جديد يرهقه ويحرقه، لكنه يجعل لكل شيء من حوله معنى آخر.

ها هو ذا اليوم مخلوق جديد، تعصف به فتنة اليقظة، وشباب الفكر وتألّقه.. إنه انقلاب دعاه إلى إعادة التفكير في كل شيء بشكل عاصف.. لم يقل: لماذا أنا هنا؟ لم يقل: لماذا أقصر همي على المراقبة؟ ولم يقل: كيف؟ بل لم يقل شيئاً قط. لقد نهض من مرقبه، واقتلع قدميه مرة واحدة من برج التأمل الكسول، قاطعاً بخطوة مصممة المسافة الشاسعة بين برجه وأرض أبناء الرمال.

عندما ثبت قدميه حيث اختار، إلى جانب البيت العتيق، كان كل ما هو هناك يشتعل ويتأجج. كان من أبناء الرمال من انصهر تماماً وشكل من جديد، فصار له منكبان عريضان قويان، وعينان متلاثلتان باصرتان، وقلب يشع نوراً بديعاً، ينتهي الطرف دون نهايات خيوطه.

لم يعد مراقباً.. تجند في صفوف ذوي المناكب والعيون والقلوب.. قفزة هائلة من ذلك المرقب النائي إلى تلك الأرض التي لن تعرف غير العمل المهتدي. كانوا قوماً آخرين، ينسكب في دمائهم نور من السماء، يتنزل على رجل منهم فيمسك به ثم يفتح قبضته، فينطلق منها ذلك النور الخارق إلى أعماق كل القلوب، يبيثها الرسالة: العمل المخلص في سبيل الخير..

ولأنه كان هنا الكثير من القلوب غير الملوثة، ولأن فيها انبساط الصحراء ووضوحها وسطوعها، واتصالها بالأبد والمطلق، وإحساسها

الحي بالنقاء والحقيقة، فقد حملت نور السماء، وراحت تغرسه وتعهده، وتزيح عن طريقه العقبات ليمتد وينداح، ويتخذ طريقه سرباً إلى الدنيا بأسرها.. كانت تلك القلوب مخلصه إخلاصاً موجعاً، ومتجردة تجرداً معجزاً، ولذلك صنعت المعجزات.

لعلنا لم نزل نذكر ذلك المرقب القديم.. لقد تخلص تماماً عن صفته تلك، صار جزءاً من حملة النور.. تشظى وسكن رؤوسهم وقلوبهم جميعاً.. استبدل بالمراقبة التدبير المسترشد بنور السماء.. وأحس به الجميع، وراحوا يبتدعون له التسميات.. هناك من سموه الوعي، وهناك من سموه العقل، وهناك من سموه الوجدان..

كان كلما اعتصره التعب جنح بخياله دقائق إلى مرقبه البعيد، الذي يكاد يتلاشى في أفق الذاكرة، ولا يزيد على ذلك.. لقد استبدل مغتبطاً وصب النقاء، والسعي المهدي الهادي، بدعة التأمل والراحة وخفض الخمول..

أحس أنه على نحو ما قد اهتدى إلى سر الحياة، ولم يكن سرها ماءً في مهالك، عليه اجتياز الأخطار إليها.. كان كلمة.. ولم تكن الكلمة شيئاً جديداً بالنسبة إليه، لكنه اكتشف أنها كل شيء.. وبهذا الاكتشاف صار يملك قوة كالسحر! قوة تختصر القوى كلها، وتوحدها لتطلقها هادرة جديدة بتغيير وجه الأرض..

صار همه الآن توطيد تلك القوة الخارقة، فقد أدرك أنه ليس الوحيد الذي أدرك سر الحياة ذاك. إن ذلك السر ليس طلسماً، ولا هو مكنون خفي، بل حقيقة راسخة متجلية حيثما وجدت من يبحث عنها، وينظر

في الاتجاه الصحيح إليها، ويحييها في القلوب.. ما أبسط، وما أعظم ذلك السر!! وما أجل من يهتدي إلى حمله وإحيائه!!

كانت البصيرة التي استيقظت ترعى سر الحياة فوق هذه الرمال، فبدأ عجباً مهيباً كالمعجزات، ولكنه لم يكن غريباً أبداً. كان سر الحياة، لذلك فهو موجود حيثما وجدت الحياة، ومهمته الآن إيقاظه وبعثه..

كانت تعتريه حالة من الانسجام والرضا والتوهج، بلغ به ما يشبه الطرب، وهو يطير بكنزه المعجز إلى أماكن وقلوب قصية أو غريبة، ثم يكتشف أن ما معه ليس غريباً، وليس مبتدعاً، إنه موجود في صدور متفرقات، وعلى ألسنة مختلفة، إنه هنالك، وهناك، وهنا، وحيثما بحثت عنه.. قد يندر وجوده حقاً، لكنه لا يندم أبداً.

لقد حدث أن غدا تياراً كما هو اليوم، غدا كذلك في أماكن كثيرة من تلك الأرضين، وفي أزمنة مختلفة.. كما حدث الناس قابس ذلك النور، الذي تطلقه يداه المباركتان في القلوب.

ذلك التوهج.. تلك القمة من الروعة التي انسكبت فيه، كانت جديدة بالاستثنائات بكل خلجاته، فراح يستمد منها قوة باهرة، لا تكاد تعترف بعقبات الطريق، بل تطوُّها وتتخطاها، في خطوات أكبر بكثير من أن تتأثر بها. لكنه شيئاً فشيئاً، راح يبرز أمام عينيه مقابل راسخ، كاد يعفي عليه السر الباهر، إنه ما يصرّ على تسميته بالضلال.. الهدى والضلال.. شاء أم أبى.

مرة أخرى يتوقف مذهولاً.. هذا هو إذاً المفتاح، الهدى والضلال.. صراعهما الأبدي الملازم للحياة. ودون سابق إرهاص اتجهت عيناه إلى

أرض النخيل.. كان سطوع النور يكاد يخفي تلك البقعة المتأرضة في مغارسه المظلة.. ما تزال هناك!! وفي هجمة مفاجأة للذاكرة، استعاد مشهد ذلك النور الذي فتتها وشتتها في الآفاق.. ذلك النور.. تجلي سر الحياة.. كان يومها يتوهج هناك، كما يتوهج اليوم هنا، وحاول الضلال طمسه، فانتصر على الضلال.. وعاد الضلال يحتمي بالمخابئ، ويكمن ريثما يستعيد أنفاسه، ليتصدى للهدى أنى وجد، ومن جديد..

كل ذلك الضياء، وما تزال البقعة كما هي! يحتها النور، لكنه لا يقضي عليها تمامًا.. حقا إنه الأقوى، ولكنها دائمًا إلى جانبه.. بل هي لازمة لوجوده، بل تتقارض وإياه الوجود والضمائر والأرضين، كلما ازداد نقصت، وكلما نقص ازدادت.. قد تعظم أو تضؤل أو تسوى بها الأرض، لكنها لا تختفي.

بذلك المفهوم راح يحدّ البصر إلى سواد أرض النخيل.. وهو يستعيد ذكرياته غير الواعية مع البقعة المؤرقة: كم هي عنيدة، وكم هي راسخة!! إنها جزء من سرّ الوجود.. ترى هل الوجود اليوم في مأمن منها؟ ربما.. فهو في أوج شبابه وعنفوانه.

بالتزامن تمامًا وهذه الفكرة، خطر له أن معركة ستبدأ، أو أن الظلام يخطط لجولة جديدة في المعركة الأبدية بينه وبين النور. إن فكرة التصدي والعداء تتأجج لدى الأضعف، كلما رأى انتصارات خصمه.. قد لا يستطيع، أو قد لا يجد من الحكمة التصدي له، وهو في أفضل قممه، لكنه حتمًا يبدأ التخطيط لذلك.

فتح عينيه بقلق.. فقد بدا له أن سطح البقعة يضطرب بتموجات عميقة، لكنها طفيفة لا تكاد ترى، لولا اهتزازات يشي بها بعض السعف

الغض.. وبدا واعياً كونها خطراً محتملاً، وإن لم يكتشف ماهيته، ولا موضعه مما يجري من أحداث.. الشيء الوحيد المؤكد لديه أنها شيء كرهه.. أما ماضيها، وتاريخها الحافل مع النور، فقد تواريا في زاوية الذاكرة التي أباحها بكل قدراتها، لوهج الهدى المتفجر اليوم فوق أرض النخيل. حتى فكرة كونها تغلي في أعماقها لم تحز الكثير من همه.

وانقضى زمن طويل جداً قبل أن يأتي اليوم الذي بدأ يلاحظ فيه من جديد أنها تنمو وتكبر.. وداهمه قلق مفاجئ.. ومن جديد، وكما في المرة الأولى، لم يلاحظ متى بدأت تنمو.. إنها دائماً تبدأ عملها في الخفاء، حتى خيل إليه أنه مستمر، لم ينقطع، فهو لا حدود واضحة له.

هل تصطدم بالنور الجديد؟ استغرقه التفكير في الأمر.. كيف لم ينتبه من قبل إلى أن ذلك قد يحدث!! وهزته الفكرة.. إنها تعني الكثير.. وفي محاولة لاتقاء زوبعة، لا يرغب في التعرض لها، راح يقسر نفسه على تحديد أفكاره: ليكيف عن استعمال الكلمات ذات الدلالات العامة. فما هو ذلك الكثير الذي تعنيه كلمة «تصطدم»؟ وكمن تلقى صفعه منتظرة أقرّ باستسلام: لا بدّ من العداء.. وهو سيجرّ حتماً إلى المواجهة..

ومن مجاهل الذاكرة، التي أنعشها أصحاب الصحائف العتيقة، المقيمون في المدائن والواحات، أو القادمون من بلاد الجبال والأنهار في الشمال والشرق، حيث تأكل الخضرة والبحر شيئاً فشيئاً صفرة الرمل، وحيث تتفاعل، منذ أزمنة ممعنة في القدم، أحداث لا تنقطع..

من هذه المجاهل، التي أنقذتها صحائف الأولين من سطوة النسيان، انبعث تاريخ الظلام..

إنه يبحث له عن مكان.. وفي كل مرة يتصدى له النور، ويمحقه حتى تتمحي معالمه.. ثم تتوالى القرون، ويتخذ له منافذ إلى ممالك النور.. يتسرب متكرراً في صمت، ويتغلغل حيث استطاع ضئيلاً صفيقاً، لا يلبث أن يكبر ويغلظ. ويظل في كل أطواره يحلم بالتمكن في الأرض، وانتزاع السيادة فيها بالقضاء على النور..

هذا العناد، هذا القانون من قوانين الحياة، سيشهد اليوم تطبيقاً جديداً وحيّاً، هنا في أرض الرمال.. كيف لم يفهم الظلام عبر كل تلك الحقب أن انتصار النور حتم؟ لا بد أنه قد فهم، لكنه يحلم بأن يغير ذلك الحتم، ويسعى إلى ذلك مستميتاً، فلا يفلح أكثر من إطالة شقوته في ترقب انقضاء النور.

وألقى نفسه مدليهاً، ينصهر كيانه في هتافه: أيها النور.. ستبقى منتصراً.

ودمعت عينا النور اعتزازاً وغبطة وإشفاقاً. وقطبت بحقد ماحق خيوط الظلام المتسللة من خلال السعف المغمور بالشمس، وتمعجت في غضب أكمه أبكم أصم. أما سر الحياة الأبدي الراسخ، فقد كرس بمهابة المسلمة القائلة: إنما المعول على القصد.

كان لديه آنذاك ما يستطيع عمله.. إن من الممكن ألا تظل أمانيه نيراناً في داخله، تحول جدران الظلام المحدقة به دون انبعاث شررها.. ولم يخطر بباله قط أن يفتر سعيه يوماً، فيسيطر الظلام، ويتصدى لكل ومضة يبثها احتراقه، فيعيدها إلى سويدائه، ويدمره بها.

وانطلق.. عرض على رسول السماء مخاوفه وقلقه.. وكما في كل مرة وجد الشفاء هناك.. وجد أن النصر لمن يسعى، حتى إذا ما تواكب السعيان، فالنصر للنور لا محالة. وجد أن مثل النور والظلام كمثّل الآية الخالدة: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

واكتشف أن السعي المواكب لسعي الظلام ليس سهلاً ولا بسيطاً، فهو وإن كان لا يدلّه على القوى العليا من خير وحق، يعمل باستماتة لتسخير القوى الأدنى لخدمة مآربه.. فميدانه اللذائذ الآنية، والمصالح المادية، ووسيلته إليها المحمّدة الوحيدة التي يمتلك، وهي الذكاء. وقد هداه إلى اختيار الطريق الأقصر، والركائب الأكثر راحة، والغايات الأقرب منالاً، والأشدّ بريقاً ودغدغة للغرائز ودنيء الرغبات.

السعي المواكب لسعي الظلام صعب وقاسٍ، لكنه ممتع ومتاح.. وبلا تردد، فتح كل مصاريع كل الأبواب أمام كل التضحيات.. ما من شيء أضمن من سيادة النور، لذلك فكل التضحيات واردة وواقعة ولا بد منها.

وهكذا بدأت المعركة، بدأها الظلام، ولو لم يفعل لبدأها باسم النور.. المراقبة وحدها كشفت أسراراً، كاد يجن دهشة لعدم انكشافها من قبل.. تحت أي ستار وإه يعمل ذلك السواد الرهيب!! وكالمصعوق.. كالمذبوح اكتشف أنه كان يعمل فقط في غفلة النور.. أنه لم يكن ليستطيع التحرك لولا تلك الغفلة.

وراح يضرب رأسه بمجمع كفيه.. سلاح الظلام بين يدي..!! لا سبيل له إلى تدمير النور إلا بغفلي وتفريطي!! يا للإعجاز!! ما أروع اكتشاف السر! وما أشد ما يفزع ويروع!

وتبصّر.. إنه لحق.. حيث يتهاون النور ينفلت من أغلاله الظلام.
حيث يخلي النور المكان يملؤه الظلام.. إنها سنة الله..

ولم يتهاون، اتجه بكل قواه إلى السواد يرقبه، لا من مرقبه البعيد، بل من هنا، من بين جذوع النخيل، وفوق الأرض التي يطؤها فيتعجج الظلام كالغبار اللزج في مواطئ قدميه، يفور ويخمد، ثم ينحجر مرغماً، ويلبث مكشراً عن نيوب الغادر المصفد. لقد أدرك أن كل غفلة له تعني الهلاك له وللنور الذي يحمل شعلته في صدره وفي يده.

راح ينعم ويترف ببهاء وسطوة وقوة النور، حتى خيل إليه أنه لا قائمة للظلام بعد اليوم. وأوشك أن يعيد النظر في كل ما توصل إليه من استنتاجات سابقة. فهذه الأرض تستحم بضياء أخاذ، يمتد ويتفرق فوق الرمال.. ضياء يختلف وذاك الذي تبثه الشمس في النهار، والقمر في الليل.. تلك الروعة المهيمنة بسلطان بيّن تتمرد على ما استخلص من قوانين.. أي ظلام لا يبدده ويدحره بهاؤه السرمدى!! إن شعلة خافتة تقهر جحافل من الظلام، وتدفع بها إلى الهرب والتواري. فكيف بهذا التوهج الفريد الهائل..

راح يكابد عشقاً لم يعرف له تسمية، وانصهر في بوتقة النور الباهر. فشعر أنه ازداد في داخله تألقاً وسطوعاً.. وتحسس منكبيه.. سيقويان.. أجل سيقويان على حمل ذلك النور إلى البعيد. ومدّ بصره إلى حيث كان يراقب من قبل، إلى قمم الشمال، وغابات الشرق، إلى بحار الجنوب والغرب، بل إلى ما وراء ذلك.. ولم لا؟ إن من أوتي هذا النعيم لا بد أن يتحرق شوقاً إلى إغداقه.

فجأة، وبسرعة لم تسعفه باستحضار ذاته المشتتة طرباً، انفجرت على صفحة الظلام فقاعة وثانية وثالثة، وسال منها سواد لزج بغيض. ولم يكد يرفع حاجبيه دهشة ومفاجأة، وقد احتبست أنفاسه، حتى انداحت أمواج النور تسد الأفق، وتغرق السائل الأسود، وتعفي على آثاره تماماً.

كانت الفقاعات كصرخة ثاقبة في وادٍ سحيق ساكن، انبثقت بسرعة خاطفة، فاصطدمت بحوافه، وارتمت في القمر جثة هامة، وتراكت فوقها أطباق الصمت والسكون من جديد.. كأن شيئاً لم يكن..

وأمعن النظر إلى حيث انفجرت الفقاعات قبل قليل.. أياكون واهماً؟! وتلفت حوله، هل حدث هذا فعلاً، أم هي خاطرة عبرت؟! إنه بحاجة إلى ما يثبت له أن ما رآه كان واقعاً. ولم يكن غير تكرار ما رأى يملك أن يثبت ذلك.

تساوت رغبته في الوقوف على الحقيقة، وإيثاره التشبث بدوامه الحيرة المنقذة. ثم بدأت رغبته الأبدية في عناق الحقيقة تؤلمه.. أحس أن الثمن سيكون باهظاً جداً.. لكنه في قرارته كان واعياً أن هذا الثمن إن كان قد وجب فقد وجب منذ المرة الأولى، التي لم يستوعبها هو.. مع ذلك فقد كان فرقاً مرتبكاً، يؤرقه أنه قد يرى تلك الفقاعات في أي لحظة كانت.. كما يؤرقه انفجارها في تلك المرة التي لا تزال تترجّح في البرزخ الفاصل بين حدود الواقع والخيال.

وأرغم النور في ذاته على أن يفسح مكاناً للحقد والثورة.. فليذهب إلى الجحيم ذلك الظلام.. لم لايجته من موطن قدميه، ويذروه مع

رياح الأرض؟ إنه ما دام هنا، فلا بد أن يتسرب من أي ثغرة كانت، وفي أي لحظة لا يتوقعها.

وأحفظه وأثاره إصرار أمواج الظلام على التوالد والامتداد، بذلك العناد المقيت الدبق. وأجبت غضبه تلك البقعة البغيضة، التي لا تنفك تنمو وتتعاظم، متربصة بالنور لحظة غفلة؛ لتعلوه فتخنقه، وتطفو فوق أشلائه.

فجأة كذلك، وكما في كل مرة، وكما كان ينتظر، بدأت ترتفع كالقدر المحتوم، فقاعة عنيدة.. وتربص منكمشاً، متوقعاً انفجارها الوشيك.. لكن تربصه طال.. وكانت هي تنتفخ وتتمدّد. وبرزت فقاعات أخرى اتخذت مساراتها تحت غلائل النور متلصصة، حتى رفدت الفقاعة الرئيسية. فتضخمت تلك واهتزت وربت، وتفجرت تحت سمعه وبصره، وتناثر الظلام والدخان والرماد.

طار صوابه.. خيل إليه أن مقدار القار الذي فار من الانفجار سيغطي تلك البقاع كلها، ويعكر الضياء المنداح في قفارها.. لكن معجزة وقعت.. كما لو أن ريحاً ملهمة، أو كفاً جبارة هوت من السماء، فمحقت كل ما قذفته تلك الفقاعة المجرمة من قذى وظلام ورماد.. لم يختف، ولم يتشتت، ولم تذرهِ الرياح، بل انسحب من أقاصي امتداداته، وعاد فانسكب في فوهة الفقاعة الخاسئة، فأخمدتها.. أدار خنجرها إلى صدرها فمزقها، ودفنها في أمواج النور من جديد.. وعاد كل شيء كما كان.

لم يكن حتى التنفس ممكناً.. القرار هو الممكن الوحيد الآن.. فلينبش كل ذلك الظلام، وليُحرق.. فما كان للنور أن يقيم فوقه.

وها قد ثبت أنه لا بد من نفيه؛ ليباشر النور الأرض، وينفذ إلى أعماقها الخيرة، ويعاود الخروج في ثمرها وشجرها ومياهاها، صافياً نقياً لا يعكره الظلام.

وانتفض.. ولم تكن صرخة تلك التي أطلقها، بل زلزالاً شقق أديم النور المسكوب فوق تلك البقاع.. وهاله ما رأى.. كان الظلام والسواد قابعين في قعر عالمهما الدنيء، متشبثين باستماتة المنطقة التي تعيش فيها الأبصار من وهج النور.

كيف تتجاوز قمة الخير وقمة الشر؟ كيف يجتمع النور والظلام؟ إنهما لا يجتمعان قط.. قد يختبئ الظلام خداعاً وتمويهاً في زوايا ممالك النور.. لكنه لا يبقى هناك؛ لأن النور كلما توهج توغل في الأبعاد أكثر، وأضاء المزيد من الزوايا البعيدة، حتى يعم ويسود.

وراح الظلام المفضوح يحرق بعيون بليدة مطفأة مهزومة.. لقد فاجأه الانكشاف قبل أن يتخذ أفتنته كما يريد.. وأعلنت العيون ما كانت تخفيه، وأفصحت النظرات عما كانت تمويهه، ألقت به بنذالة وإفلاس وحقد أسود: الموت لكل خيط نور فوق الأرض.

كمية الحقد التي تكشفت، وحجم العداء الذي فتحت أبواب خزائنه على مصاريعها ملأه بالذهول والندم والخوف، وانقلب على ذاته يقرعها.. أي غفلة تلك؟ كيف تأتى أن تصل الأمور إلى هذا الحد؟ كيف لم يتحرك من قبل؟ كيف لم يخطر بباله الغوص إلى الأعماق للوقوف على حقيقة نيات الظلام، الذي يعرف أنه يجثم هنا؟ ذلك الخداع المجسّد.. كيف استغل الظلام سكوته عنه، وطيبته ونقاءه؟

كيف استفاد من ضحالة خبرته بالممارسات الدنيئة، والأساليب الماكرة؟ أهو مخطئ؟ هل كان ينبغي أن يمتلك شيئاً من الخبث والخداع والحق، ليتعرفها في عيون أعدائه؟!

وارتعد، وهو يتأمل متممًا: لو أنني كنت أقل قوة مني الآن! لو أن النور الذي أستظل بلوائه لم يصل بعد إلى أوجه! لو تبادلت الأدوار والظلام! لو أنه هو الأقوى!.. وصعقه الواقع الذي تكشف فجأة بكل ما فيه من مرارة الحقيقة.

الأمانة التي يحملها، أمانة صيانة النور، وفتح النوافذ أمام خيوطه لتغمر الأرض، تقتضيه الآن استخدام لغة الظلام؛ لأنها الوحيدة التي تفلح.. لا بديل من ذلك، إما أن يتحرك فيقتل الظلام، أو يقعد فيقتل النور.. وكان الأمر محسومًا بطبيعته.

طفق يرقب جحافل الظلام ترتحل.. واستوقفه أن ثم مستعمرات تتشبث بأمكنثها بوقاحة وصلف.. واستيقظ فيه التاريخ.. انبعث مجسمًا مجلجلًا، وملاً عليه أقطار إحساسه وإدراكه تساؤل مستنكر: أمكنتها! أي أمكنة تلك التي يصح أن ينسب إليها؟! وانبثق سؤال، لم يكن غريبًا، ولكنه كان واضحًا ومحددًا: من أين جاءت؟!

تطاول الأزمان مؤه البدايات.. كل ما يذكره أنها مكروهة مؤذية، تنتقل بأذاها وسوادها أبدًا، حتى إذا ما استقرت، تترغتم لممارسة الفساد، فانقلب عليها الأرض التي تقلها، ففتنتها ولفظتها، ونفت ما تبقى من فلولها..

أحسّ بارتياح مجهول الماهية.. طبيعة الكون تأبى الظلام والسواد، تسلبه دائمًا ما تيسر من أسلحته.. لكنها لا تقضي عليه تمامًا، تتركه

ليشب ألق النور، ولتنتقي أبناءه، وتوقظ فيهم الشوق إلى الخير، كلما خفت إحساسهم به، وشغلتهم عن تكريسه وحمايته شؤونهم وشجونهم.

أرهقه الأمر.. ألهاه عن مهمته الأساسية.. النور الآن نقي وصاف، لا عفن ولا سواد ولا ظلام يتربص به في منبعه هنا.. أحس بالحاجة إلى شيء من راحة.. وساورته أطياف بعيدة، ورؤى لم يعد لها مكان، تنفست ذكريات ضياء الضحى الكسول في المرقب البعيد، والمرئيات الغائمة الهائمة خيولاً وأشعاراً وصبايا..

ولكن أين هي الراحة التي يحتاجها؟.. لم تعد هنا.. لقد بدلها راحة أخرى.. راحة ذات نكهة مختلفة، راحة عميقة، تكاد جذورها تغيب في غياهب الإدراك، كم تغيب في أعماق الروح والجسد.. إنها الراحة الحقيقية، التي ينعم بسلامها من يزرع تحت وطأة النصب الناجم عن العمل الجاد المثمر البناء..

بقدر الجهد والعرق اللذين يبذلهما، وهو يضرب في الأرض، فاتحاً بجسده المرهق السبل المغلقة أمام النور.. بقدر وصب الترحال، والحمل الذي ينقض الظهر يجني ثمار تلك الراحة المجهولة الماهية، المستعصية على التجلي، إلا من خلال الإحساس النقي الأصيل المتجذر في أغوار الروح والجسد.

كان ذلك الاكتشاف مثيراً، وراح يبحث في تلافيفه.. ما الذي تغير؟ أثار ذلك ابتسامته.. الكثير الكثير.. لا يستطيع أن يحصي أو يحدد ما تغير فيه، ولكن يمكن جمعه في عبارة واحدة: الانصهار في النور الجديد. يا للعجب!! كل ما يراه اليوم يمرّ عبر ذلك النور.. واشرب

ناشراً ذراعيه إلى أقصى مداهما، كأنه يريد أن يكبر حتى يملأ الدنيا بما لديه من نور، أو يحتويها في ذلك الصدر المضيء الكبير.. إنه اليوم مخلوق مختلف، مخلوق عمده نور اخترق كيانه ومازجه، إنه العشق! إنه الحياة!

ومدّ عينيه يرقب بقايا الظلام الناصلة، وهي تتلاشى في الأفق، هزيلة تكاد تذوب في الرمال. وحاك في صدره قلق.. تذكر صوراً سابقة من أيام المرصد المنعزل.. صوراً كهذه.. حيث بقايا الظلام المنحدر تمخر متفرقة تائهة الصحارى والجبال والهضاب وتذوب ثم..

وطرد من خياله الفكرة.. إن الظلام اليوم من الضعف والهزال بمكان لا يسمح له بإعادة الكرة في أي مكان كان من الأرض، لقد دحره النور إلى الأبد.. حقاً إنه سيبقى.. فهي السنة التي يقوم عليها الكون، ولكن لن تكون له صولة ولا وطن، ولن يمتلك سلاحاً فاعلاً، يستطيع به تهديد النور، وسدّ المنفذ دونه.

بدت الأمور كما يجب أن تكون، وراح يحمل هواه وحبه ونصبه وعشقه فوق كاهله، وينطلق به تتخذه الجراح، ويمضه فقد الأحبة، ويملؤه الغدر والخيانة والأذى حزناً وهماً. لكن البلمس والترياق كانا حاضرين أبداً، ذلك الحبيب الذي يحمله في كل ذرة من كيانه، ويفرس منه فسائل مباركة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها..

أصبح ذلك اعتياداً، إذ تناول عليه الأمد، وكما لا بد أن يحدث دائماً، أسكره بهاء النور، واستيقظ فيه حينه القديم إلى التمتع الذي

يكاد يتوارى في تلايف الأيام.. التنعم بذلك الجمال الباهر، الذي صنعه الله على يديه، هنا وهناك، وفي كل مكان.. وراحت ليالي وصباحات المرقب، الغارقة في لذاذات كاد ينساها، تومئ إليه من بعيد، واستيقظ في أعماقه شيء يشبه الحنين إلى ذلك العهد الملمع ببريق وجاذبية الذكريات البعيدة.. وكان الظلام هاجعاً في أغلاله لا يريم..

قاوم.. ثم لم يعد يقاوم، فمن حرم زينة الله التي أخرج لعباده؟ هذا ما استقر في نفسه بعد عشرات من المقولات التي تواترت على خاطره..

هكذا غمس أصابع قدمه في اللجة القديمة الجديدة بتردد.. هكذا استجاب لنداء الحنين الحنون المغربي.. ثم راح يفوص قليلاً قليلاً، وبقدر.. فما الضير في بعض ذلك في تلك الدنيا الجميلة التي صنع!

هكذا بدا يستيقظ فيه الإحساس بما اكتسب، فكنوزه التي منحته إياها فتنة الرمل الذهبي الساحر، ونقاء الأفق اللازوردي الفريد، وتلك الأرواح العاملة الشفافة التي عمرت ممالكه الصغيرة الأولى، أضيف إليها الآن الكثير الكثير.. لقد امتزج بها النور البهي، فأضاء كل ما فيها، نقاها وعراها، وكشف جوهرها، فدفع بالغث منها إلى وراء، وجلا الثمين، وعمده بجلاله وجماله وعظمته، حتى بات ذا تقرد معجز لن يتكرر.. إنه يكاد لا يعرف اليوم صاحب المرقب القديم البعيد ذاك، حيث يقوده الحنين إلى الجذور التي لا تموت أبداً.

بهذه الدفقة من الأفكار اقترب من المرقب القديم.. كان لا بد من إزاحة ما يقف في الطريق إليه.. الأشجار التي نمت وأعطت وشاخت

وماتت وتراكمت حطباً ففحماً.. الحجارة التي اقتلعها من السفوح والقمم كثر الليالي واختلاف الأعصر... الغبار الكثيف المتحجر.. وعناكب الزمان الهائلة المعششة في كل زاوية وكل ركن.. وغموض الماضي المهيم بتسلط وغطرسة وعناد.. لكن المفاتيح كلها كانت في يده. هل تستعصي العودة إلى الوراء بضع خطوات على من امتلك أزمة الخطوات، فربط أقطار الدنيا وأفكار البشر عبر المسافات والأبعاد والأزمان؟! هكذا بدأ خطوته الأولى إلى الخلف، بتحدٍ تارة، وبغريزة الارتباط بالماضي والحنين إليه أخرى.

وشغله العالم القديم الجديد، كان عالماً آخر، لم يكن عالم المرقب الذي استعاد ذكرياته فيه، ولا عالم النور الذي يحياه.. وتوقف قليلاً عند تلك الكلمة، ثم نحى شبح التردد: أجل إنه ما زال يحياه..

المرّة الأولى التي دخل فيها المرقب أثبتت له أنه، على الرغم من كونه ما زال هنا، فهو ليس هنا.. المرقب هو هو.. الآفاق كما تركها منذ مئات السنين العاملة الناصبة.. وومضت الكلمتان في فكره.. هنا يحس بوضوح بمبلغ ما كابد، منذ ترك هذا المكان حتى عودته إليه.

ودفعه الفضول والحنين إلى مقعده القديم، فهيأ لجلسة تعيد إليه الزمان الذي كان، وغاص بنشوة، حيث قضى القرون مسترخياً دون حراك، يراقب النجوم والتخوم.. ومدّ بصره يتقرّأها بلهفة من يلقي صديقاً بعد طول فراق.. ها هي ذي كما تركها.. وسرعان ما استيقظت الذكريات.. وطفق يتلفّت مأخوذاً.. كل ما تركه هنا ما زال بإمكانه أن يراه.. كأنه ينتظره منذ أن ناداه النور.. كل شيء إلا هو. أحس أنه

اثنان.. وأحس، مندهشاً، أنهما يتصارعان، بل أحس أنهما، منذ زمن لم يستطع تحديده، قد بدأ يتصارعان..

لم يتردد لحظة واحدة في التسليم بأن الغلبة ستكون لكيانه الجديد، كان ظاهراً التفوق في كل شيء، إلا أن الأول كان راسخاً وصامداً، بحيث لا يمكن تصور محوه. كان أحياناً يراهما يتعانقان حتى تضيق معالم الصراع، ويخيل إليه أن ما يراه هو الحقيقة الثابتة الباقية، ثم فجأة يعودان إلى التمايز، فالتناظر، فالصراع...

راح يكابد إحساساً بالحيرة والاضطراب، وأشفق في مواقف كثيرة أن يجد الكيان الجديد سيّداً متفرداً، ينمحي إلى جواره الكيان العتيق، فقد كان يدرك ولا يزال، أن من خصائص النور الذي شغفه حباً محو الظلام، وأن في كيانه القديم الكثير من النقاط الخيرة التي جلاها النور، وبعث فيه الحياة المشعة والتوهج الفاعل.. وفاضت مشاعره، وضم ذراعيه إلى صدره في حرص مستميت على النور الذي صار جزءاً أصيلاً منه، بل صار هو نفسه..

أحس أن كيانه القديم سيحور غصناً في سرحة باسقة، تحتل جذورها التراب، وظلالها الأرض، وفروعها السماء. وأكسبه ذلك شيئاً من طمأنينة، وزفر زفرة ارتياح.. كان ينفر من فكرة الصراع، ولم يكن قد مارسه قط، كما تمارسه الأمم التي احتك بها، وهو يحمل إليها النور.

لم يعتد تضارب الأفكار وتزاحمها واعتراكها، فقد كان كل ما حوله ينساب في موجات لطيفة صافية قد تتعانق، ولكنها لا تصطرع ولا

تتشابك.. حتى عندما كانت دماء أبناء الصحراء تسيل، لم يكن ما يسيلها أكثر من صدمات مصلحة بسيطة، لم يتعب رأسه قط في تقصيصها، والإحاطة بأبعادها، لذلك انقاد إليه الكيانان في انسجام فريد. واعتنق قول رسول السماء القادم بالنور: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.. وكان هذا ما تسعى إليه فطرته: أن يقوى ما فيه من الخير بما كان وما يكون، وأن يمحي إلى الأبد ما فيه من الظلام.

كل هذه الفلسفة تطلبتها رغبته الملحة في تلمس الجذور، والارتقاء في سحر ذكريات الماضي، وكلها كانت أسلحته ضد ما قد يتربص بتلك الرغبة من أخطار.. ومع ذلك كانت ثمة خيوط رمادية، تتراءى في الفضاء الصافي المذهب المنداح أمامه.. خيوط غير محددة الطبيعة والمصدر، لكنها موجودة، كتلك الظلال السود المتشظية من نسف مواقع الظلام، واجتثاثه من الأرض.

اعترفته دهشة مؤرقة.. أفلقه أن تستدعي تلك الخيوط الرمادية المريبة الظلام إلى ذاكرته، وأربكه إدراك كنه الرابط بينهما.. ولم يجد إلا أن يقرر تنحيه جانباً كلما تراءى له، ولم يكن ذلك صعباً، فهناك الكثير مما يشغله، ويصلح للحلول محل ذلك خاطر الكابوسي المريب.

إطلالة واحدة من عالمه الأول أسلمته إلى هذا الطوفان المرهق من الاضطراب بين ما كان وما يكون.. لذلك قرر أن يطيل أمد الراحة، متهيباً بدء المراقبة الفضولية المتراخية كما كان يفعل من قبل..

فضولية متراخية!! وشكّ دون مقدمة في قدرته على التعامل والفضول والتراخي.. ووجد نفسه في حاجة إلى الكثير من استحضار

الذهن، وشحذ الذاكرة، لاستعادة طعم هاتين الكلمتين، فقد اعتاد أن يمارس الاهتمام بدلا من الفضول، وألف أن تستوفزه الأمور، وتقتحم به مضامير الفعل بدلا من التراخي.

لم يعد بالإمكان استعادة تلك اللذة الممعة في الهرب إلى زوايا النسيان، ولم يعد بالإمكان قطعاً الاستمتاع بها. وذلك المرقب.. لقد حان الوقت لتغيير تلك التسمية.. فهو لم يعد الآن مرقباً، يمكن تسميته بالمنطلق أو المستطلع. فهو واثق بأنه وراء كل تأمله، من هنا ستبعث فكرة وسيولد همّ. واستسلم مبتسماً مقرأً.. ولوّحت له أطيايف السعادة الشاحبة بإغراء، ليتبعها في أعماقه التي يتهيب خوض لجاتها..

كان الزمن لاهياً إلا عن تكريس ذاته، بالرغم من كل شيء.. وأحس أنه أصم أعمى فاقد الإدراك، كرة صلبة مصمتة، تندرج بإصرار.. تتحرك من داخلها، دون أن تعي ما وراء ذلك.. تطأ من تطأ، وينجح في التشبث بسطحها إلى حين من ينجح، ثم تلقي به إلى جانب من سبقوه وتسحقه حتماً، لا يستثنى من ذلك أحد.. قصارى ما يحدث أنه يترك على سطحها شيئاً من أثر، يصمد إلى أن يأتي عشوائياً ما يطمس.. جثة مسحوقة كانت، أو أثر متشبث عنيد آخر.. ولم تكن الآثار تبقى قط، لكنها قد تعمر دورة أو دورتين أو دورات..

النور فقط هو ما لا تطوله تلك الكرة الثقيلة الغبية، فإذا ما سحقت الصدور التي تحمله فرّ منها واختار أقفاً قصياً، يتحدى منه بلادتها وسلبيتها ولا مبالاتها. ثم انسكب في صدور أخرى تظل تحمله إلى أوان سحقها.. إنها أوعية النور التي ينمو، ويزدهر فيها، وتحفظه ليتناقله

مَن بعدها، فلا يقدر عليه الزمن كما يقدر عليها.. مقيت، أم مهيب
ومعجز وحكيم هو الزمن!!

رأسه يؤلمه.. يسعده.. يمنحه الإحساس بالحياة، برغم عناد حكم
الزمن وحتميته. لم يكن يعلم قبل ذلك أن اللذة الحقيقية ألم واحترق..
أن ولادة الشعور تعني انبثاق الحياة من اتحاد الألم والفرح.. وأرهقه
ذلك، كان جديداً عليه أن يصوغه، أن يدونه أو يغنيه، كما اعتاد أمام
كل إحساس يتخلله. شعر أن ما في صدره الآن ينبغي أن يترجم عملاً
لا غناء.

ورأى الدنيا كلها كتاباً منشوراً فوق ركبتيه، وهو على مقعده في ركنه
الشامخ ذاك.. فراح يعبّ صحائفه.. يملكها.. يحاكم ويطبّق ويُنفي ما
أثمرته أفذاذ العقول. وكان يهتز ويترف ويرهف، بما مرّت به فرائد
القلوب والأرواح من تجارب تثري الحياة وتسمو بها.. وكابد فيه عناءً
هرب منه طويلاً، ثم اكتشف أن لا مهرب منه إلا إليه، واتحاداً غير
مباشر بروح النور الذي ماهاه ومازجه.

كان كثيراً ما يرفع عينيه عن صحائفه، ليفاجأ بأن عليه أن يتركها
جانباً، لينصرف إلى أمر ملح يستدعيه. وأرقه السؤال، بل ألمه: لماذا
لا يستطيع أن يعيش كل شيء، وبالنسبة نفسها من العمق والفاعلية؟
إنه يحس أن لديه القدرة على ذلك.. لو أنه فعل هذه وهذا وهذا، لنجح
وأبدع.. ولكن ثمة عوائق غائمة متشابكة متداخلة، غير محددة، وغير
مفهومة، وغير مقنعة.. لم هذا التنكيد؟ شيء مؤرق مؤذٍ ألا يستوعب
الأمر.

كان يتهرب من الاعتراف بأنه لا يمكن أن يمتلك القدرة على القيام بذلك كله.. إنه لا يقرّ شبه الإجابة ذاك، إذ يبدو له أن ثمة عاملاً آخر غير القدرة، إنه ذلك الثقل البليد غير المبالي «الزمن».

لماذا يتدخل الزمن ويفرض نفسه كعامل لازم، كلما همّ بفعل شيء؟ لماذا يحتاج إلى مساحة معينة منه، يخصصها لهذا العمل، وذلك وذلك؟.. وتضجر.. إن قيامه بكل ما يريد مستحيل؛ لأنه لا يمتلك من الزمن ما يسمح له به، أو لأنه لا يمتلك من القوة ما يمكنه من تجاوز طوق الزمن وتحديه.. هذا على ما بدا له يحتاج إلى قوة خارقة لم يزود بها.. إنّ عليه إذا أراد جمع الأمور كلها أن يبذل في محاولة الموازنة فيما بينها من الجهد ما لا يترك لأي منها ما يكفي من قوته.

ولم يكن أمامه إلا أن يهرب من هذه الدوامة إلى صحائفه وأقلامه وتجاربه وتطبيقاته؛ بحثاً عن الترياق الذي كان يجده في انشغاله الطويل بحمل نور الحق الأول إلى أصقاع الأرض.. إنه الآن يمارس ذلك العمل في خدمة النور، يستولده بتعميد كل مظاهر الحياة والإبداع ببهائه وسره العظيم..

لم يكن هنالك بدّ من أن ينتزعه أمر بين الحين والحين من غمار حياته الجديدة، على الرغم من كونه قد مهد السبل للتفرغ لها.. لكن الحياة التي تتحرك باستمرار تولد المستجدات، ولا تكاد تعباً بإصراره على الثبات في نقطة ما.

وأحسّ بأسف شديد إلى درجة الإيلام.. لو أتيح له التفرغ لما أراد لفعل وفعل وفعل.. وسرعان ما تدخل النقيض الحاضر أبداً: لو فعل وفعل وفعل لكان وكان وكان، من جراء انصرافه عن الأمور الأخرى..

حالة البلبلة المعذبة تلك صارت جزءاً ثابتاً في وجوده، وكان لا بد من تجاوزها بأي ثمن.. إنه لا يستطيع الانكباب كما يرضيه على أي عمل وفي أي اتجاه.. فالمؤثرات والمتغيرات تتجاذبه، وتؤرق هدوءه اللازم لأي إنجاز كان.. كيف يبدع، وهو إذا ما انصرف إلى الإبداع، وتوغل فيه إلى أقصاه هنا فلا بد أن أموراً أخرى، وربما ذات أهمية لن تكون على ما يرام هناك؟

أرهقه تراحم المتغيرات، وأحبطه أنه لا بد أحياناً من ترك ما هو أكثر أهمية من أجل ما هو أقل أهمية.. كان يفوص تارة في هذا البحر، وأخرى في بحر آخر، ويخرج في كل مرة موقر الشباك باللالئ والكنوز المنسية في أعماق المياه الليلية، وينشرها تحت الشمس، فتغنى بها وتغنيها.

كانت الأمور تجري من حوله مكثفية منه بالكلمة أو الموقف أو الحركة المسددة المجدية، وكانت الأيام قد علمته شيئاً من مبادئ الموازنة بين شؤون الفكر وإبداعات الروح وإشراقات القلب. وطاب له أن يرى نفسه بكل ما يحمل من نور وعلم وفن، سيد تلك الأصقاع وقائدها.. كان يعرف أن ثمة تحت الشمس سادة آخرين، لهم ممالك شاسعة، مسّ الكثير منها نوره، بل توغل في أعماق بعضها بما يحمله من خير عنوة تارة ورضاً أخرى. ولأنه يحمل رسالة السماء الحقيقية، فقد كان ينعم بكونه الأفضل والأعلى.

لم يكن هنالك بدّ مع مرور السنين من بذل المزيد من الجهد للحفاظ على المكاسب التي أحرزها للنور، وأحرزها النور له، فهو لم

ينسَ قط ما تعلمه من قبل: طبيعة الكون تأبى الظلام والسواد، تسلبه دائماً ما تيسر من أسلحته، لكنها لا تقضي عليه نهائياً لتكرس توهج النور، ولتتقي أبنائه وتوقظ فيهم عشقه، كلما خفت إحساسهم به، وشغلته عن حمايته شؤونهم وشجونهم.

شيئاً فشيئاً، وكما يحدث دائماً وفي كل مكان، وتحت أي ظروف كانت، راحت تتأجج وتتكاثر الأسباب التي تنتزعه من مملكة الإبداع.. كأنما قد انقضى زمانها.. يا للزمن! ويا لتلك الغيوم التي لا تتي تنتشر في أفقه الضاحي الشفاف! وداهمته قشعريرة كتلك التي تجلبها أولى رياح الخريف، فأنكمش ساهماً، كأنه يشيع أليفاً يمضي ملوحاً ويدوب في الأفق البعيد.

لقد حلم كثيراً بهبوب تلك الرياح الصديقة التي اعتادها، تلذذ طويلاً بتخيلها تشتت الغيوم، وتعيد إلى الأفق رونقه وصفاءه.. ولكن الرياح الصديقة لم تعد تزور إلا غيباً، حتى عندما تفعل، فهي لا تطيل المكث، ولا تكاد تغنيه عن كثير من الجهد والوقت اللذين ينبغي بذلهما لإعادة الأمور إلى نصابها.

كانت أيام الإبداع والغوص في أعماق الفعالية، ولذة استقراغ نبض العقل والقلب تتوغل شيئاً فشيئاً في عالم الذكريات فالأمانى، مما جعله فريسة لكآبة ليست بالجديدة، راحت تعيش في زواياه القصية.

وأرهبه الضيق والعذاب، فبقدر حرصه على عالم النور الذي يعشق، كان تمسكه بعالمه البديع الثمين، وقد استحال عليه الجمع بينهما كما يرضيه، فاستبد به التمزق المثبط، وجثم فوق صدره، مغتصباً لنفسه

مكاناً بينهما، ثم راح يتمدد، مزيحاً هذا تارة وذاك أخرى، حتى ران على قلبه، فلم يعد يجد طعم أي منهما صرفاً. وكان يعرف ذلك الطعم الجديد الحارق المجهض، لكنه الآن، وبعد أن شهد النور والإبداع يبدو سماً زعاقاً يسري في روحه وجسده وتحت سمعه وبصره..

وألقى نفسه يسبح مسلوب الإرادة في برزخ بلا ماهية ولا حدود، وبدأ له أن كل شيء مما كان في متناوله يتسرب من بين أصابعه، وأن يديه عاجزتان عن القبض على أي شيء.. أو أن الأشياء هي التي تنفلت من قبضته وتستعصي على المكث بين يديه..

النور..! وتلمّسه جزعاً.. إنه ما يحتاج إليه لإصلاح كل شيء.. ولم يكن النور ضئيلاً ولا محتجباً، كان يحبه ويألفه، كان يقف على أبواب قلبه، منتظراً فرجة لاقتحامه، وكثيراً ما فعل، فكانت تعود إلى القلب إشراقته، وإلى العين صفاؤها، وإلى اليد قوتها.. لكن الرياح الغربية الهوج كانت تصفق تلك الأبواب، وتشرعها إلى الضباب والتمزق والعجز، فلا يرى وراءها إلا أطباق غيم كثيف يتصدى لنور الشمس التي يحلم بها..

كانت عيناه فيما مضى تبرقان بأشعة تخترق تلك الغيوم وتبدها، وتخلص إلى النور، فتفتح له الطريق؛ ليغمر القلب والأرض.. لكنهما الآن متخاذلتان خرقاوان، تكاد تخدعهما البروق الخلبية التي تدفعها هوج الرياح إلى سمائه، فلا تكادان تفرقان بينها وبين نور الحق الأزلي.. النور الذي ماهاه طويلاً، حتى صار قلبه منطلقاً لخيوطه إلى كل الأصقاع..

كان البريق الجديد فاتن الالتماع، لكنه كان قصير الخيوط، فلم ينفذ إلى أقاصيه قط.. لقد بهره، استلب عينيه، مدّ له حبال الإغراء بخبث ومكر، فتح كفه في غفلة منه، وسكب فيها قطرات من سائل عسلي لزج كالقطران، لكنه جاح الحلاوة، أغراه، فراح يلعبه.. واستبد به الهيام.. بسط كفه أمام وجهه وراح يدمن اللعق.. وكانت كفه المبسوطة تحجب كل شيء.

كان يسكر.. كان يهرب من ألمه وعذابه وضعفه، تجلده ذكريات النور والمجد والسلطان، وقهره الرغبات المعريدة، والخطوات المتمردة باتجاه البهرج والخداع والسائل العسلي الجاح للعين.. ولم يقوَ على التضحية بأي منهما.. وكان غروره لا ينفك يغيره بإعادة محاولة الجمع بينهما، كما صور له اندفاعه واحتدامه من قبل أن في مكنته القيام بكل شيء لولا.. الزمن.

وكانت تصورات تلك ترضيه أحياناً، فيدوس بحماقة ذلك الهاجس المتواتر.. ستفقداهما معاً.. ويتساءل مستنكراً: ولم لا أحرزهما معاً؟.. بغض النظر عن كون الظلام والنور لا يجتمعان!!

وذات مرة هدته رغبته العمياء إلى ضالته.. إنهما يجتمعان.. أليس هناك الغسق والغروب؟!

آه.. ها هو ذا أخيراً أمر جدير بالبحث.. ألا يمكن أن تدوم هاتان الفترتان؟ ألا يمكن أن يكون المخاض حالة مستمرة؟..

وخمدت الفرحة الخديجة.. لكنها ستكون عذاباً متصلاً.. ستكون شيئاً خارجاً عن قوانين الوجود التي تحكمه فيما تحكم، وقد قضت تلك القوانين أن المخاض مرحلة مؤقتة، ممهدة للميلاد.

كان في نقطة ما من أعماقه يشعر أن ما يفكر فيه سفسطة لا طائل وراءها، لكن عناده كان يتغلب على شعوره ذاك.. لم يعد ثمة شيء صاف في كيانه، لم يعد ثمة شيء قوي.. وروعته هذه الحقيقة، لكن ارتياعه كان مثله أضعف من أن يبلغ مبلغ الزلزال اللازم لإنقاذه..

الحقيقة الوحيدة الساطعة كانت تسرب المزيد من الرياح إلى مملكته.. عواصف هناك راحت تجتاحه هنا، وكانت من القوة وكان من الضعف، بحيث راح يفقد الكثير من ركائز تفكيره لدى كل واحدة من ثوراتها العاتية. ولم يعد يقوى حتى على الاستنجاد بالنور، على الرغم من يقينه أن العودة إليه هي المنقذ الوحيد..

يقينه ذاك كان معلقاً في الفضاء، كان يحتاج إلى يد تمسك به، تعيده إلى أعماق القلب.. وكان القلب هواء.. زلزلته الرياح العاتية، فشلت النور، وها هي ذي تعصف بأوراقه وأقلامه وثمرات إبداعه الملهم المضيء، تذرو كيانه الروحي المجسد علماً وفتناً، فيتمزق على حراب الصخور وأشواك الجذوع وتتطاير أشلاؤه معفرة بالرمال حتى تثقلها وتدنفها، أو تحملها فيما تحمل من كنوز إلى البعيد البعيد؛ لتكون لغيره.

ألغى نفسه ضائعاً، سلاحه بيده ويده شلاء ورأسه أشل، والحراب تتقدم منه مشرعة من كل اتجاه.. عندما كان فيما مضى يحمل لواء النور، كان يسمى ذلك ظلاماً، أما اليوم، حيث لا لواء له، فهو العدو.. وإنه ليعرفه، ويعرف ما ينتظره منه، إنه ما ينتظره وريث النور من وريث الظلام.. ما أشد دهشته الغبية!.. لم كل هذا العداء؟! هل كان ذنباً أنه حمل النور والهدى إلى الدنيا؟!.. من ذا الذي يكره النور؟!

وطحنته حسرة طواها دهشه من السؤال: لماذا يكرهون النور؟ لماذا لا يعتقونه؟ هل كان سيِّداً سيِّئاً إلى هذا الحد، حتى تتقلب عليه هذه الرياح الهوج العاتية بكل تلك الوحشية؟ حتى هذا السؤال يدرك أنه ليس في مكانه، إنه واع لما يجري، والوعي المحاصر بالضعف والشلل عذاب لا يحتمل، عذاب يهون معه وأده، وتغليق الأبواب من دونه، والهرب من سياطه إلى أي زاوية، مهما كانت قصية ومجففة وضئيلة.

يا للكواكب والنجوم عندما تتزاحم وتتدافع وتتفانى، وتختر في غمضة عين إلى العدم، تاركة الظلام وحده.. ولا شيء غير الظلام..!

لم يفقه تماماً كيف تراكت كل تلك الجراح فوق أديم جيده بكل آلامها، وما تورثه إياه من عجز وركون وخمول.. وكلما تفرس، في غفلة من عذابات ومثبطاته، في جرح يتلمس ما قد يوقف سياطه وصراخه، انهالت عليه الجراحات تتشاكى، فضاع، وترنح تحت وطأة ألم لا يطيق عليه صبراً، وهرع مرعوباً إلى ردم ذلك الجرح بضماده القديم العفن..

استهواه البكاء.. وجد فيه الشيء الوحيد الذي يستطيع فعله في حالة العجز والشلل والاستهداف، ونزيف الجراح الجديدة الذي يملأ حفر الجراح القديمة الشوهاء النتنة.. أخيراً، كان لا بد أن تلي ذلك مرحلة التكمير فيما ينبغي عمله، في سلاح يدفع به أولاً غائلة الجراح التي لا تنفك تتزايد بلا مبرر، وبشكل لم يعهده أو يفهمه..

تخيل، في بحثه المحموم عما يمكن أن يعيد إليه شيئاً من مجده القديم أن اليد التي لم تعد تقوى على العمل، لن تعجزها العودة إلى

القلم، فهو أخف ثقلًا، وأسهل حملًا وأكثر طواعية.. وسرعان ما اكتشف أنه كان في أبعد نقطة من الحقيقة. لقد خذله القلم كما خذله الرجاء المجاني من قبل، بل إنه زاد على ذلك، فصنعه بحقيقة لم يكن قد تمثلها تمامًا. فلئن كان القلم لا يحتاج إلى قوة الساعد، فهو يحتاج إلى قوة تنبع من ذلك الشيء العظيم الذي كان في داخله.. وفقده. وهكذا زاد القلم عدد الجراح، ولم يداوها، أو يسيل عنها.

ومن موقعه المقهور كان يرى.. يرى فقط، وبانعزال كامل.. بينما يتكاثر الضباب، وتتزاحم المرثيات، وتضج وتضخب وتتلوى، أخذًا بعضها برقاب بعض، حتى تضيق معالمها، ويداهمه الصداق، فلا يقوى على متابعتها. ويغمض عينيه الكليتين، فلا يفتحهما عجزًا أو يأسًا، حتى عندما تأخذ المرثيات والحقائق في نهش أطرافه، وتمزيق إهابه ونكء جراحه.. لقد كان فتحهما مأساة قائمة برأسها، تضاف إلى مآسيه..

صارت الخسارة خبزه اليومي.. فكأنما كان ثمة قاعدة لا تحيد عنها الأحداث التي تجري من حوله، اتجأ إلى النيل منه وتحطيمه.. كيف تتفق كل الظروف والأطراف لتكيل له اللكمات؟!

كان تارة يفسر ما يجري بكونه اللقمة الأسهل منالًا، لكن ذلك التفسير لم يبرر له كمية الحقد التي يواجه بها كل ما حوله.. إنه لا يستطيع، من موقعه العاجز أن يرى بوضوح ما يحرك الأحداث من خيوط، قد تقوده إلى إدراك كنه ذلك الاستهداف الحقود، ومن يتولى كبره.

آه.. إنه يتلمس بأصابعه الكليية، كأعمى ليس له من وسيلة إلاها، ملامح يعرفها.. الظلام؟! الظلام من جديد.. أفكاره تأخذ طريقها إلى الترتيب، لا إلى الولادة، فهي لم تمت قط.. فليتحرّ الظلام، فإنه المفتاح..

آخر عهده به، بل ببقاياها تتأكل في الفلوات الشمالية.. لقد اجتاز في حمله للنور تلك الفلوات، وما تلاها من جبال وتخوم، فلم تعكر أفق رؤيته تلك البقايا ولم يقف لها على أثر.. فهل ابتلعتها الرمال؟! على نحو ما كان موقناً أنه لا بد من وجود شيء منها هنا أو هناك، فهو يعرف طبيعة النمو والامتداد الفطوري في شظايا الظلام ومزقه. ولا يزال يذكر كيف يراها من مرقبه منذ قرون تتجاذب وتتلاصق وتتداعى، مستترة بمشاعل كاذبة، تخفف من وطأة حلكتها، ثم تسري ملتهمة المسافات بصمت، وتستوطن متطامنة منابت النخيل في أرض النور، من قبل أن يولد.. ولا شك في أنها ستعاود الكرة ذات يوم، وفي مكان آخر.

وتلفت، كمن يبحث فيما حوله عن شيء يكاد يوقن أنه، وإن لم تلتقطه عيناه، ليس ببعيد. وتذكر - في استسلام قانط - ما بذله النور، لاجتثاث ملاءات الظلام الصفيقة من صدر تلك الأرض، وتشتيتها، لإتاحة الفرصة للضياء، حتى يغمر الدنيا كلها.. لم يجد في الصدر متسعاً لحزن جديد، لذلك لم يتساءل ولم يتحسر، على أن النور لم يمحُ الظلام تماماً. وغامت في باصرته وبصيرته فكرة أزلية الصراع بينهما، لأنه لم يكن يملك أي ركيزة للتفكير فيها، وكان الصراع يعني له جراحاً فوق جراح..

وحدهم، من امتلكوا سفناً عبرت التاريخ الحقيقي، أدركوا عمق المأساة التي يعيش، وحدهم أحسوا ذلك الوجد الفريد، الذي تسببه رؤية الشموخ العزيز يداس، والنبيل الحقيقي يلوث ويدنس..

كان التاريخ، الذي كُرس بتسلط ووقاحة، كاذباً ومزوراً ولصاً، كان كل ما فيه مزيفاً، حتى اسمه. أما التاريخ الحقيقي فقد ابتلعه الظلام، وثبت أقبالاً محكمة على الأفواه القليلة التي يمكن أن تفسح عنه..

وفي ثورة نزع وغرور ألقى الظلام أقنعتة.. نعب منتفشاً، وبدا واضحاً أنه قد أعد العدة بإحكام؛ ليوجه ضربته القاصمة إلى قلب النور.. غرز سهمه الأسود الحاقد هناك، وخطّ بقديمه الملطختين بالفساد والضلال في مرماه.. في الأرض التي لم تزل تجد طعم دماء الذين سقطت أجسادهم عندما طردوه منها مذووماً مدحوراً..

وألقى ببصره إلى هناك.. أحس أن قلبه هو الذي طعن.. وكان قد نسي كيف يغزو الحزن القلب، فهو مقيم فيه، يتخذ أزياء من التبدل والتقوقع والتحجر والتسمم البطيء المميت.. لا يصح أن يسمى تلك الطعنة قاتلة، فهو مقتول منذ زمن لم يعد يذكر بداياته.

راح يصرخ ويجمع قبضتيه؛ ليكيل اللكمات للقار البغيض المتمطي بصلبه وأعجازه وكلكله فوق صدره، وسرعان ما دميت تانك القبضتان، وأثخننا بالجراح، وتهدلتا عاجزتين منهارتين، بين طعنات الظلام القاتلة، وتخاذل سائر الجسد عن نصرتهما، ضعفاً أو جبناً أو خيانة.

كان اكتشافه الظلام، من جديد، جديراً بأن يستدعي انتفاضة تغير الواقع المرير، لكن الشلل لم يسمح بأكثر من رعشة في أصول

الجدور، عميقة ومأساوية، فجرت الدماء من زِمِنات الجراح في دفقة هائلة، أرضت حقد الظلام، وأحكمت قبضته على الجسد الأشل، مما مهد السبيل إلى القلب الذي بات مباحًا..

مع ذلك لا يمكن القول: إنه قد مات، فقد كان على الرغم من استباحة وجراح قلبه حيًّا.. بمعنى ما، كان حيًّا، فهو أشل متهالك، لا يقوى على الانتصاب، لا يقوى على التحرك في ضجعته، لا تطاوعه يداه ولا عيناه.. لا يطاوعه إلا قلبه الأشوه الأبتَر، الذي بدا غريب الإصرار على مواصلة النبض.

وكانت ثمة خلايا حية حرة، مكنونة لا تكاد ترى، لكنها كانت مصدر غمٍّ للمنتصر الجبان، فهي لم تخفَ عليه، ولم يعمَ عنها حرصه المتكالب، وإن لم يستطع الإمساك بأي منها. كانت كأضواء تلتهم من بعيد، كالنجوم ترى، لكنها لا تدرك. لأن النور يرى من أبعاد شاسعة يتعذر تقديرها.. يحدق إليك متحديًا، وتحديق إليه عاجزًا، ولا يبلغ بك الأمر أن تفكر في الاتجاه إليه...

هو أيضًا كان يرى ذلك النور.. لم تعمَ عيناه قط، حتى في أقصى أغوار الظلام ومجاهله، كان يراه.. ولكنه لم يعد يدرك معناه.. عيناه ليستا بعاجزتين، لكن قلبه وعقله عاجزان.. ومصاريعهما المغلقة على عفن طعنات الظلام لا مفاتيح لها، ولا قوة لديه لفتحها عنوة...

ما أمض الألم عندما يهتصرك الداء، ويكون الدواء بين يديك، لكنك لسبب ما، لا تفتح فمك لتناوله! هذا السبب الخفي القاهر هو ما يعجزه.. وهو ما ينبغي القضاء عليه، لكنه يجب أن يتعرفه أولاً.

جسده الهائل المسجى على امتداد تلك الأصقاع بلا حراك،
الراسف في قيود من كل لون ونوع، المشدود إلى الأرض بأثقال تعجزه
وتضنيه، يقاوم باستمرار فكرة العجز عن التخلص منها، ذلك الجسد
المهيب الفريد، يثير فيه أحاسيس شتى متضاربة: الإحباط، العزيمة،
الانكسار، الثورة، اليأس، الأمل، الخجل، الاعتزاز.. ما أشد عند ذلك
الجسد! بل ما أشد صراحة الواقع وفصاحته!

كل ما يعرفه عن نفسه، كل الحقائق المتوارية في أعماق الذاكرة،
كل ما هوقابع بصمت وراء الإحباط والانكسار واليأس والخجل
هو عزاءه. وانتابه خوف مفاجئ.. كيف ترك له زبانية الظلام هذه
الحقائق؟! كيف سلمت من أيديهم، وبقيت فيه حية، وقد استماتوا في
محوها وتزويرها وطمسها؟!

أحسّ بصحوة وانتعاش، وراح يرمق في روحه يجلو باندفاع وشغف
تلك الحقائق الثمينة واحدة إثر أخرى، ويدفع إلى الخارج بكل بقايا
القوة التي ما زالت عالقة في جدران وجدانه الخاوي.. أصابعه
المتموتة المطمورة في التراب، وجدت شيئاً من العافية ينسكب في
مفاصلها المتصلبة، ارتعشت في حضرها، استجمعت كل حشاشة الروح
المحتضرة، وتحركت.. تشقق التراب المرصوص منذ عقود كثيرة،
وبرزت، كالشهاب الثاقب، الأصابع الرمادية المتصلبة، واستقبلت
الشمس، وكأنها كانت في انتظارها، فألقت فيها روحاً تمشت في
الأوصال، وتمركزت في القلب.

ثمة حياة.. النبض الذي كان مخنوقاً تحت ضغط قبضة حديدية
يتنفس.. يحشرج.. ينتفض بقوة داخلية جبارة. يا للعجب! إنه نبض

حقيقي.. تدفق فجأة، ضجّ كما لم يكن يتوقع.. ما أعظم تلك القدرة التي يمتلكها هذا الجسد الأصيل الجميل على الحياة!

أذهلت المفاجأة أولئك الذين أنفقوا، وما زالوا ينفقون كل ما يملكون لإفناء ذلك الجسد، تراخت قبضاتهم الغاشمة، تجمدت مداهم الحاقدة، تثلمت فؤوسهم التي يحفرون بها الأرض بدأب حول ضحيتهم لتغرق في التراب.

وسطع نبض القلب.. سمعه الكثيرون ممن لم يكونوا يسمعون إلا نعيق الظلام في أبواقه. برعم، على الصفحات، وعبر الآذان، شعاع من الحقيقة المطمورة في رمال وسط العالم وقلبه. أدرك كثيرون من أقاصي الدنيا أن في هذه الرمال، التي تتوسط العالم، حقيقة منيرة، تقف جيوش الظلام برمتها في مواجهتها؛ لإطفائها وطمس معالمها.

وثار دعر الظلام، انفلت كعاصفة وجدت فرجة في جبال شاهقة، فاندفعت بقوة الضغط والاحتباس.. اندفع أهوج أرعن مستميتاً، فدمر كل ما مرّ به.. استعاد الصوت من الآذان، وكلام الصحائف من العيون.. كان في مواجهة واقع يقتضي تجنيد قواه كلها.. فلكي تقضي على الحقائق، لا يكفي أن تطمسها وتشوّهها، بل ينبغي أن تذبحها في مهدها.. الحقيقة لا تموت إلا حيث ولدت، وما دامت حية في أرضها، فإنها سرعان ما تستعيد قواها، وتجتاح كل الفضاءات التي طردتها منها.

هكذا تجمعت كل أسلحة الحاقدين، ولم يكن هناك ما يمنعهم من التحلق حول ضحيتهم الهائلة، وإغمد نصائحهم بوحشية في جسدها

العاجز، لاستئصال ذلك الداء من جذوره. انتزعوا كل ما عثروا عليه من حقائق، جمعوها في حاويات كتيمة كبيرة، ونقلوها إلى أبعد المنافي، مروراً فوقها قطاراتهم، حملوها بطائراتهم، وألقوا بها في متاهات الصحارى، وسلطوا عليها نيران أسلحتهم كلها، ثم حملوا بقاياها المتفحمة، وألقوا بها في أعماق نقطة من أكبر محيطات العالم.

ثم صنعوا بدائل أطلقوا عليها اسم «الحقائق» ملؤوا بها الآذان والعيون، حقنوها في الأماكن الفارغة من ضحياتهم العتيدة، وخاطوا أفواه الجراح، وردموا مهاوي الحفر، وهم يغطون وجوه جرائمهم بكل ما تتفق عنه قرائحهم من ألوان الأقتعة: معالجة المرض، استئصال الجهل، القضاء على الجوع، إعمار الأرض.

وكانت الأقتعة متقنة، وكان هو مشوش الفكر، حتى كاد يصدق ما يدعون.. بل إنه صدق ذلك فعلاً، فهو الآن، على الأقل، لا يستطيع الحراك، وإن كان يتحرك فقط، في مسارات مرسومة، لا يملك عنها محيداً. وهو يستطيع الرؤية، وإن كان لا يرى إلا من خلال المنظار الذي تكرموا به عليه، بوصفه صديقاً نامياً. والأهم من ذلك كله أنه يستمتع بتلك المباهج الصغيرة، التي تضيف على الحياة ألواناً براقة، وتدلل الرغبات، وتمنح النفس متعة، هي من أبجديات حقوق الإنسان! وقد كان محروماً منها طوال عصور ما قبل الذبح المظلمة.

وفي تطور محتوم صار يملك أن يحرك رأسه ويديه، تم ذلك على الرغم منهم، فهو ما يزال في مرحلة النقاهة من عملية زرع الزيف والزور، ولا بد من السماح للجسد بالتقوي؛ ليتجذر زرعهم ويثبت، وهذا يستلزم التفاوضي -ولو مؤقتاً- عن تلك الخلايا الهاربة من المباحض

البارعة، عن ظلال الحقائق التي تبتلعها مياه المحيطات ورمال الصحارى القصية.

لم يشعر هو بذلك، كما كانوا يشعرون.. فالحقيقة أنهم كانوا متفرغين لشؤونه؛ لأن استقرار كياناتهم ونجاح مخططاتهم، مرهونان بمحو آثار تلك الحقائق مهما ضوّلت. أما هو، فقد استغرقته مباحج النفس الذي منّوا به عليه، بعد دهر من الاختناق، وطفت وطفت آثار عقاقيرهم وجراحاتهم، وحقائقهم التي ابتدعوها، على أي خلية أصيلة منسية، تتوارى في زاوية من الجسد المشوه الممسوخ، حتى عندما كانت تحاول أن تتنفس في غفلة من أعين جند الظلام، كان يتصدى لها؛ حذر مخاطرها على مكتسباته، التي يعرض عليها بالنواجذ، والتي أخرجته من حالة المجاهدة في سبيل الرمح، إلى الحياة ببريقها وحلاوتها، بالإضافة إلى ما تعد به من الحلم بالوصول إلى مصاف العلية، المختلفين في كل شيء.. الذين لا حق ولا جمال ولا خير إلا حقهم وجمالهم وخيرهم، ولا مجد إلا مجدهم، منذ أن كانت البشرية إلى يوم الدين..

هكذا امتلك هو الآخر مدية كمداهم، يستخدمها بالطريقة نفسها التي يستخدمونها بها، بل إنها لتسفر أحياناً عن نتائج أكثر نجاحاً.. لأنه أخبر منهم بمقاتلته!

* * *

إلى موضع ما، في تاريخ ما، تقاطر، من أكنة لا أسميها لدواعي السلامة والأمن، نفر من أولئك القلة الأحياء، الذين خلفتهم العصور

والأحداث.. إنهم بشر مختلفون.. لهم صدور هائلة الاتساع، وقلوب باهرة النقاء، وعقول معجزة الصفاء. يحملون شعاراً واحداً، هو الإيمان والقصد، وتجمعهم لغة واحدة، هي العمل والتفاني، ويتداولون عملة واحدة، هي العرق، وتتظمهم صفة واحدة، هي المنعة من الزيف، ويسعون إلى هدف واحد، هو بعث الحقيقة..

كانوا أمهات وعلماء وفنانين.. وعلى الرغم من المبالغة في السرية والحذر، فقد نما إلى الظلام خبرهم. ولما لم يستطع بعد كشفهم بأعيانهم، ونظرًا إلى خطورتهم البالغة على جهود مئات السنين في التصدي لما يمثلون من قيم، ومن قبيل الاحتياط للأمر، والأخذ بالأسباب، وكإجراء وقائي لا بد منه، فقد قرر الظلام وأصدقائه وأتباعه وأعدائه ومناصره، بالإجماع، محاربة كل أم، وكل عالم، وكل فنان، يتوافر فيه أي من الصفات الآتية: النقاء، والإيمان، والقصد، والموهبة الحقيقية، ومزية المثابرة والدأب، واعتماد الجهد والجد والعرق منهجاً للعمل. كل بحسب موقعه ووضعه وقوة تأثيره في محيطه.

ولم يغفل الظلام وقبيله كذلك عن حقيقة معجزة، لا يملكون حيالها إلا الوقوف عاجزين، إنها قدرة هذه القلة المؤمنة العاملة على تخطيهم، واجتياز كل كمائنهم المموهة، وحرابهم الصريحة المشهورة؛ لأنهم يعتصمون بالنور، الذي لا تغلح كل أسلحة الظلام مهما عظمت في التصدي لشعاع واحد منه مهما ضؤل.

ولذلك فهم اليوم بصدد اختراع نورهم العصري الحضاري الجديد، الأكثر بريقاً والأكثر جاذبية. وقد أطلقوا عليه أسماء مغرية من

قبيل الإنسانية والعالمية والانفتاح والشمولية والديمقراطية بين الأمم! كبدل من النور الذي يعتصم به هؤلاء المؤمنون الأنقياء المثابرون، الخطرون على الأمن العالمي..

فإلى كل من ينتمي، أو ينتسب، بشكل ما، إلى هذا الكيان المنكوب، أو يهمله أمر الحقيقة في هذا العالم: لئن لم نكن من هؤلاء الأفاذ، الذين يستهدفون بعث الحقيقة، فإن من واجبنا أن نحميهم، ونقاوم مخططات الظلام لمحاربتهم أو محوهم أو تهمةهم. ولننتبه إلى المُدى المجرمة المزروعة في هذا الكيان، فهي ألغام قاتلة، قد تكون أخطر من أسلحة الظلام التي ماتزال في يده...



ما وراء الخندق

الليل يجثم بليدًا باردًا، موصول العصف، مزمجر الرعد، وسياط البرق النارية تجلد التلال المقرورة الراجفة بقسوة.. ومدينة رسول الله ﷺ قد أغلقت مداخلها، وتحصنت خلف خندق، يتيح لرماتها النيل بالنبل من جموع قريش وغطفان ومسانديهم، المتربصين بالمدينة منذ أسابيع.

كانت ليالي الحصار الطويلة تلك تذكر المسلمين ليالي الحصار في مكة، حينما ضرب الباطل أسواره الصفيقة الغاشمة على القلة المؤمنة المحاصرة في شعب أبي طالب، وتحيي على الألسنة وفي الذاكرة طعم رمال الشعب وجذوره، وممرارة ظلم ذوي القربى، فكأن الأمس قد بعث اليوم بملاح أفسى وقبضة أشد.

ها هم أولاء أعداء الأمس تحشدهم مكاييد يهود، تجرهم عبر الصحارى من كل حذب وصوب؛ ليضربوا على المدينة المؤمنة حصارهم الحاقد، ويمنعوا عنها أسباب الحياة، ملوحين بالموت تحت قبضة القوة الغاشمة، أو في براثن الجوع والبرد.

وفي معسكر الإيمان المتصدي عند ذيول سلع، راح حذيفة ينفخ في راحتيه الثلجتين، ويضم إليه أطراف إزاره الصفيق.. أحس أن هذا المرط يخلله، فهو لم يغن عنه شيئاً أمام الريح المتسربة من بين الجموع، ومن خلل السرادق، والتي تكاد تنفذ إلى عظامه.

تحسس الإزار مستعطفًا، مسترجعًا صورة زوجته، وهي تشيعه حتى الباب، ثم تنزع ذلك الإزار عن جسدها النحيل؛ لتلقي به على كتفيه: خذه يا حذيفة.. البرد شديد.

وأنت!

سأوي بالفتية إلى حصن ابن ثابت، مع عمه رسول الله ﷺ، أما أنتم ففي العراء.

ثمة خيام.

لا تمنع من رياح الليل.. خذه يا حذيفة.

وعاد يجمع إليه أذياله بحرص، ويخفي قدميه الراجفتين في ثنيتي ركبتيه، ثم دفن أنفه المتلج في راحته، ورفع بصره إلى سفح سلع، يستجديه الحماية من هذا العاصف الذي لم يع له مثيلاً طيلة حياته.

ضوء السراج النحيل يتراقص من بعيد، فتتجلى المرئيات تارة، وتغوص في الظلام أخرى، والنبى ﷺ ما انفك منذ صلاة العشاء منتصباً مستقبلاً مكة.. همس حذيفة لنفسه: ما زال يصلي! وكانت أشباح الرجال بين مصلٍّ وجاثٍ ومضطجع وجالس، تتواثب على جدران السرادق متلوية مع عبث الريح المتواصل، فقد كانوا يتراصون التماساً للدفع والآنس، في تلك الليلة الليلاء.

لم تطب نفس حذيفة بالعتب على الريح، فقد أحس أنه مدين لها.. وانتابه خشوع دفع بالدمع إلى عينيه، وراح يتمتم: أيتها الرياح.. يا رسول رب السماوات والأرض.. إنها لمعجزة ما تصنعيه هناك.. وطفقت مخيلته تستعرض الصور التي سمح بها غروب الأمس..

الخيام المتخافقة تنازع أوتادها نزاع خصمين يتفانيان، والأخرى المتطائرة تجرجر الأمتعة، وتكفأ الأوعية والقدر، وتعرقل الخطا.. والناس تموج في الركائب والمتاع، فيطأ بعضهم بعضاً.. وشآبيب الرمل تفرغها الرياح الهوج على المعسكر، فيخيل إلى الناظر أنها ستغرقه، وألسنة النيران المعدة للطبخ والإنارة والتدفئة تعربد بجنون، فتحمل الرجال على إخمادها بأيديهم؛ خشية أن تلتهم المعسكر بمن فيه..

لا بد أن يطبخوا.. أن يشربوا.. أن يتدفؤوا.. كل هذا توفره لنا بيوتنا التي نحتجزها وراءنا، أما هم فعراة عزل بين مخالب الريح والبرد والليل.. يا جبار، يا قهار.. راح يرددها في ابتهاج ضارع، فيواري بذلك النداء القلبي الصافي دمعاً يجيش، ثم يفيض رهبة وخشوعاً..

كيف تتقلب الآية؟! لقد تألبوا علينا، وجمعوا لنا كل ما طائنه أيديهم من قوة غاشمة، بتدبير يهود وكيدها وحقدتها، ونال منا الجوع والخوف، وأرهقنا الترقب الطويل، حتى كاد يحمل اليأس إلى قلوبنا.. وها هم أولاء في قبضة جبار السماوات والأرض، قشة في خضم سيل عرم، يدمر الخلاف عزائمهم، ويحبط سخط الله ما أعدوا من مكاييد وخطط..

بوارق السماء تحيل الليل نهاراً، في ومضات كالسياط المنهمرة، يتبعها هزيم رعد عنيف يصم الآذان، ويحبس الأنفاس، ويزيد الليل وحشة ورهبة.. والريح تركل غضبي أمشاج الخيام والمتاع المبعثرة.. ولم يستطع حذيفة اقتناص غفوة، فراح يعضغ الإرهاق صامتاً متضرراً.. وكان النعاس مع البرد والتعب والجوع والخوف عذاباً لا يطاق..

ها هو ذا النبي ﷺ يخرج من صلاته الطويلة.. ينتصب كالرمح بين الرجال المقرورين الجائعين، المرهقين من طول الترقب والانتظار، ويجول بعينه في الناس.. فجأة أمحى كل شيء، لم يعد في الوجدان إلا الحرص على التقاط كلمات النبي ﷺ التي يهّم بقولها.. فقال النبي ﷺ: من رجل يقوم، فينظر لنا ما فعل القوم، ثم يرجع؟

.. يرجع! من يضمن أن يرجع؟!

كل الرجال كانوا يهمسون بتلك العبارة.. لكن الجوع والبرد والليل سمّرهم، فلم يقو على النهوض منهم أحد.

شيء في داخله يتمرد على الجوع والبرد.. إنهما لا يعنياه.. كل ما يعنيه الآن أن ينهض مجيئاً النبي ﷺ قبل غيره.. وكانت الكلمة الفصل التي لا يعني معها الخوف والجوع والبرد شيئاً، الكلمة التي تقترن بالفعل، والأمر الذي يعني الاستجابة: «يا حذيفة.. اذهب، فادخل في القوم، فانظر ما يصنعون». قالها النبي ﷺ وسمعها حذيفة.

هكذا حذيفة حطم القيد الذي كبل الرجال كلهم، فأمر النبي ﷺ بحكم مبرم فوري التنفيذ.. ودعا له النبي ﷺ أن يحميه الله ويحفظه، فكان ذلك عدته وعتاده.

أواقع هذا يا حذيفة! كيف نهضت خفيفاً طائراً، وقد كنت مشدوداً إلى الأرض كجبل، متخشب الساقين، متجمد الأطراف؟! ولم يعد في ساحة شعوره إلا كيفية قطع المسافة الفاصلة بين المعسكرين.. من أين سيلتف؟.. من أي نقطة في الخندق سيعبر؟.. كيف سيزحف؟.. أي الاتجاهات أكثر أمناً؟

وانتبه، فإذا هو منتصب، مرخ ذراعيه، مطلق العنان لفكره، يبتدع المخارج ويرسم الخطط ويبتكر الحلول. فكأنما هو رجل آخر، غير ذاك الذي كان قبل دقيقة واحدة متكوراً، يرتجف كأرنب مطارد... إنه الآن رجل صنعه ندار رسول الله ﷺ لينفذ ما أمره به.

أحسّ الدماء الحارة تتدفق من قلبه، وتغمر جسده كله.. أحكم الإزار حول جسده، شدته يداه بقوة.. لتكن العقدة خلف الظهر، قد يضطر إلى الزحف على ركبتيه، وربما على بطنه.. وقوسه!.. وتلفت.. استوقفته عينان تلتهمانه بنظرات مكبرة حملته على الابتسامة.. صرخ حذيفة في وجه الرجل مداعباً، كمن يوقظ نائماً: هاك.. ثبت القوس على ظهري.. اربطه بأطراف ذلك الإزار، وليكن على امتداد الظهر شاقولياً.. وانحنى في حركة مفاجئة، حولت الموقف إلى دعاية، نقلت فرح قلبه المؤمن وانطلاقه إلى من حوله. وتابع ثرثرته المغتبطة: هذان الخفان.. قد يعيقاني.. وقذف بهما من قدميه الواحد تلو الآخر، ثم التقطهما، ودفع بهما إليه: إذا بعثوا إلينا غداً بطعام، فادفعه إلى ابنتي.

* * *

الرمل يخز قدميه كالأشواك الحادة، ويلسعهما كالسياط.. والريح القارسة تخدش أنفه وخديه وشفتيه، ولا شيء بينه وبين المصاييح الخافقة في الأفق إلا الظلام والفراغ.. واستعاد صورة المعسكر، ودرس الاتجاه الذي عليه أن يتخذه إلى السرادق الكبير، وهمس لنفسه مشجعاً: ليس بعيداً.

واستدرك: لكن الطريق مكشوفة، وينبغي الحذر. واستدرك ثانية:
لكن القوم في شغل بما هم فيه، وهذا يسهل مهمتي..

عندما بدأ سيره كان يعرف أنه لا يزال في موضع آمن، لكنه راح
يدرب نفسه على الحذر والانتباه، وكيفية إخفاء ديب قدميه وحفيف
أنفاسه.. راحت الأصوات تخفت من ورائه، وهو يتوغل في الفراغ
والمجهول، تتقاذفه الريح، وتسوطه رشقات المطر الشعثاء، فتتال منه
كل منال..

رفع عينيه إلى السماء.. لا سماء.. ظلام فوق ظلام.. أدنى
عمامته من أذنيه دون أن تغلقهما، ومد إصبعه أمام عينيه.. خيل إليه
أنه رآها، ولكن بعد أن أمسك بها بيده الأخرى، وانتابه شعور بأنه يسبح
في ماء مثليج.. صفرت الريح بعنف، وصكت جبهته ووجنتيه.. كان لها
صرير وجلبة.. لم لا يركض؟.. لن يسمع له ركز وسط صخب وضجيج
الطبيعة..

وركض متشوقاً، مرهفاً سمعه.. أين أصواتهم؟!.. المصاييح
الشحيحة المتفرقة لا تزال معلقة في الأفق، لكنها الآن تبدو أكثر ضياء..
إنها الشيء الوحيد الذي يثبت له أنه لا يزال يرى.. أما أصواتهم فلا
يسمعوها!.. هل يحبسون أنفاسهم ليفاجئوه؟! قد يرتطم الآن بأحدهم..
قد يمسك بعنقه.. وانكمش محاذراً، يعالج خوفاً بدأ يذر قرنه في غفلة
منه.. وفجأة توهج ذلك النور المكنون في أعماقه.. إنني مع الله، والله
معي.. وامحى كالسحر كل أثر للخوف، وذكر دعاء النبي ﷺ له، فادفأه
النور وأشبعه، وملأه جرأة وغبطة..

وعلى الرغم من أنه لا يرى أي شيء، فقد أغمض عينيه.. وراح يصغي.. أصوات تصل إلى مسامعه.. أهم هم؟! أحد البصر بحركة غريزية.. بلى.. لقد اقترب كثيراً.. إنه المكان الأشد خطراً. هنا تتضاعف توقعات اكتشافهم إياه، عليه الآن الدخول بينهم.. إنها نقطة الأمان التي ينبغي له أن يجتازها قبل أن يستيقظ فيه الجوع والإرهاق، أو يقعده البرد. وأحس أنه قد تحول إلى عيين وأذنين فقط.

ها هم على بعد يسير.. إبل!.. إنه يشتم رائحتها. واقترب أكثر.. البهائم تمنحه الأمان والدفع. ومدّ بصره إلى أقرب مصدر ضوء.. لا أحد.. لا شيء..! إنه قريب جداً، ولا أحد بقربه. وأحس أنه إذا جثا فسيكون بأمن أكثر، ففعل.. هبط بهدوء، غرز ركبتيه وساقيه العاريتين في الرمل الرطب البارد، ونصب جذعه، وراح يتشمم الهواء، ويتحسس أي صوت يلده الظلام.. وبرم بعصف الريح.. تمنى أن تهدأ لحظة واحدة؛ لتصله أصوات القوم.

فجأة، وكحجر ألقى في بحيرة، سمع رغاء بغير بعيد.. وتلفت: الإبل هناك عن يمينه، وحاول تقدير المسافة.. ليست بالطويلة، وذلك المصباح.. واكتشف فجأة: أنا في المعسكر، بينهم.. وهبط شيء ثقيل مؤلم في صدره، وتجمد في مكانه، مغمضاً عينيه، وراح في ابتهال لم يكن من الممكن أن يتسع القلب لشيء سواه.

إن عليه الآن البدء بالمغامرة، سيمشي كما لو كان واحداً منهم. وهمس لنفسه: لنر ما فعله ابن مسعود.. وتجمد فجأة، وهو يسمع نداء: يا جابر.. يا جابر.

الآن.. لا مكان لأي شيء إلا العقل، فليستحضر ذهنه.. صاحب الصوت وجابر الذي يناديه هنا، بعيدان عن القوم.. وقدر الخطوات التي تفصله عنهما، وراح يرهف سمعه.. لا إجابة!.. ولمعت في ذهنه بارقة، فرفع صوته: لقد ذهب.

عاد الصوت أكثر وضوحًا: ماذا؟!

ذهب..

اقترب المتكلم أكثر: إلى أين ذهب ذلك السكير؟

مرّ بي شبح قبل قليل، لعله هو..

فساعدني أنت.

وأضاف متأفّفًا: تعسًا لهذه الليلة!

فيم أساعدك؟

تمسك بالقعب واحلب.

ولمن؟

لمعاوية بن أبي سفيان.

حسبته يغطّ في النوم.

سلبه يهود النوم.

أترى حقًا أنهم ينفضون عنا؟

لقد انفضوا وقضي الأمر.. ولكن.. ماذا تدعى يا صاح؟
سليم.

لبنى عبد الدار؟ وماذا تفعل هنا؟

كان ذلك السؤال هو ما يتجنبه حذيفة، لكنه كان حاضر البديهة،
متيقظاً: وتعدني بكم خبري؟

تأكل شيئاً؟

... أخلو بطيف من أحب.

يا للطيف! أفي هذا المكان، وهذم الحال؟!

وهل للطيف مكان، وحال يا صاح؟.. هلمّ نجلب اللبن.

هيا، وأنشدني مما تشد طيفك، ولا يلهينك ذلك عن الإمساك
بالقعب، فتريق اللبن.

فجأة، تخلل عصف الريح ودوي الرعد نداء بعيد متقطع: هلموا إلى
أبي سفيان.. أصاخ الاثنان.. وتكرر النداء: هلموا إلى أبي سفيان..

هتف المولى القرشي متهكماً: أيضاً! أي مصيبة وراءه؟

واتجهت أنظار حذيفة إلى المصاييح التي بدأت تومض وتختفي،
محاكية الجلبة والضوضاء اللتين أثارهما النداء، فاستنتج أنه قريب
من السرادق.. وحدد المكان في ثوانٍ، وتوجه إلى القرشي، مبدئاً
الاضطراب: هيا، ولنسرع..

أجل؛ علنا نسمع خبرًا عما يجري.

أنا سابقك.. وداعًا يا صاح.

وانفلت ملتحقًا بأقرب شرذمة من الرجال الذين ولدهم الظلام في لحظات، وراحوا يهرولون إلى السرادق.

بدا واضحًا أنهم يتأهبون لاجتماع.. اندس حذيفة يدافع الرجال المستهدين بأضواء المصاييح والمشاعل الشحيحة المتباعدة.. كان السرادق ضخمًا، تثير بعض جوانبه مصاييح ترتجف تحت سياط الريح التي تقتحم كل منفذ مهما ضؤل.

جلس الرجال جميعًا متراسين؛ التماسًا للدفع، وراحت عيناه تبجحان، وأذناه تترصدان، وهو أقرب ما يكون إلى الجثة الهامدة. وفجأة علا صوت أبي سفيان جهوريًا، فاستقطب الأسماع والأنظار:

يا معشر قريش، لينظر كل امرئ جلسه، فإني قائل لكم قولاً لا أريده أن يبلغ محمدًا.

اتسعت عينا حذيفة، وانطبق شيء كالكلاب الحديدي على فوديه، وتوقفت أنفاسه.. ولم يدر أي قوة ألهمته ما فعل، فقد استدار بحركة غريزية مستجداً ببدايته، وما كانت لتخذه أبداً عندما تمس الحاجة إليها.. ضرب بيده على يد الذي عن يمينه وبادره: من الرجل؟

معاوية بن أبي سفيان.

ثم استدار إلى شماله، مغتمًا المفاجأة التي دهمت جلسيه، فضرب على يد الذي عن شماله: ومن أنت؟

عمرو بن العاص.

قال حذيفة شأن المطمئن المتمكن: حسناً.

ثم صمت صمتاً مطبقاً، وثبت عينيه على أبي سفيان يلتقط ما يقول. كان في داخله يغلي كمرجل.. وأحس أن ركبتيه ستخذلانه لو نهض قائماً.. أنقذه إسراع أبي سفيان إلى الكلام، كأنه يختصر الوقت: يا معشر قريش، إنكم، والله، ما أصبحتم بدار قرار. لقد هلكت رواحنا، وتخلت عنا بنو قريظة، ولقينا من شدة الريح ما ترون، فارتحلوا، فإني مرتحل.

ثم قام إلى جملة، فحل عقاله وامتطاه، فانطلق.

عمت الفوضى، وانطلق الناس يتخبطون في الظلام اللزج والريح التي لا تزال تعصف، كل يسعى إلى ركوبته ورحله. أما حذيفة فراح يتسلل مبتعداً، وهو يحمل كنزه في أعماقه.

هذه المرة لم يكن حذراً، كما كان قبل ساعة، بل راح يركض مع الراكضين النافرين في كل اتجاه، حتى تجاوز المعسكر.

من جديد انفراد حذيفة بالظلام والبرد والريح، وزخات المطر الإبرية.. كان قلبه يكاد يتصدع من فرط تصارع الإحساسات، فانتزع عمامته، وجمع إزار زوجته على وسطه مهتاجاً، وانتصب بعنفوان، منتشراً، فاتحاً ذراعيه، رافعاً وجهه إلى السماء، يستقبل المطر والريح، وقد أحاله الخشوع إلى روح خالص، لا سلطان لقوى الطبيعة عليه.. كان قلباً أثيراً يتوهج في أعماق تلك اللجة التي جمعت السماء بالأرض.

رسول الله ﷺ ينتظر...

وحذيفة يطير بالبشرى...

والخندق الذي يعترضه أمحى...

لا حصار.. ولا أحزاب.. ولا خندق.. كأنه لم يكن قد حفره بيده
بالأمس القريب...

عبر المسافة في غفلة من الزمن، وأفاق وهو يصعد من الخندق..
لقد.. اجتزته!

وانطلق يهتف، مغموراً بحلاوة غبطة لم يذق مثلها في حياته...

الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر...



اللامنتمي

لم يعد يرى في الحياة الصاخبة، الغاصة بالمتغيرات من حوله إلا موني، لقد استعمرته تماماً.. وجهها الصغير المرصع بالنمش.. شعرها النحاسي البراق الملولب، مفاتن جسدها المبدولة بسخاء حاتمي، والتي يتحرق إلى حيازتها، واحتكارها لنفسه، في بيت فخم، تستطيع ملايين أبيه أن تضمنها له.

وضاقت عليه الأرض بما رحبت، فقد انحصر همه في امتلاك موني، في الوقت الذي أدرك أن الطريق إليها تختلف، والطرق التي يوشك أن يتقنها إلى النساء دونها عقبات، لا تقل صعوبة وعدداً عن البحار السبعة التي اجتازها الشاطر حسن إلى الست بدور.. فالطرقات إليها تمرّ من هناك.. من الرأس!! حيث المسالك الوعرة، والشعاب البكر، التي راح يستكشفها من أجل عيني موني.

ولأنه كان واثقاً في ذكائه، وقدراته المادية والمعنوية، فقد أصرّ على المضي قدماً إليها.. فكر في أبعد وأعسر الاحتمالات.. كل شيء يهون في سبيل أن تكون له.. المال وحده لا يكفي، وموني لا تشتري بالمال.. وراح يترنم بذلك، متلذذاً متعجباً، فقد كانت تلك الصفة مما يمتدح في موروثة الفكري.. وإلا فما كان هناك من مشكلة.. فهو يملك من المال الكثير، وقد رماه هنا وهناك، من حولها، دون أن يجرواً على رميها عليها، قبل أن يتأكد له أنه لا يعني الكثير بالنسبة إليها، وإن لم يتبادر إلى ذهنه قط أن ذلك بسبب العفاف.

إنها امرأة من طراز فريد، تتحدث باحترام وإجلال عن الرجال ذوي المبادئ، عن أولئك الذين يتمتعون بركائز فكرية متأصلة، تصدر عنها تصرفاتهم، ويتكئون برجولة وريانة على خلفية ثقافية وحضارية تطبع سلوكهم.. إنهم ساحرون! وقد خيل إليه ذات يوم أنه يمتلك مفاتيح ذلك السحر؛ كونه مسلماً وعربياً.. وأوشك أن يقدم إليها أوراقه بثقة، محملاً بكنوزه الرفيعة.. لكنه سرعان ما اكتشف أن مقولات موني العظيمة كلها إنما تبدأ بعد استبعاد كل ما له علاقة أو صلة بدينه وقومه!!

الدهشة التي صفعته يومذاك عفت عليها اللهفة المحمومة على البحث عن طريق أخرى.. لقد فرغت ساحة اهتماماته، إلا من البحث عن طريق إلى موني، وقد باتت الطريق اليوم أكثر وعورة، إذ عليه أولاً أن ينفي عن نفسه شبهة انتمائه القومي والعقدي غير المرغوب فيه. وهكذا راح يظهر لا مبالاته بكل ما يمت إلى دينه أو قومه بصلة، وباشر حملة بدأها من داخله، للانسلاخ عن جذوره المعششة هناك، في قلب العالم العتيق العريق، وفي تضاعيف الوجدان المتبلد، وفي أعماق الذاكرة المغتالة.

انخرط باستماتة في مجتمع مدينة الضباب.. دفع الكثير؛ ليتعلم أساليب القوم في المسلك والتفكير والمظهر.. بات يطيل النظر إلى نفسه في المرأة، يتخذ أوضاعاً مختلفة، يحاكي فيها توني أو ريتشارد أو جون. وكان يسرّه جداً أنه يمتلك بشرة بيضاء، يدين بها لجذته الإنجليزية، وقد طالما باهى بها إخوته وأخواته السمر. ولم يكن في ملامحه ما ينغص عليه رضاه إلا ذلك الأنف الأقتى، والعينان الواسعتان اللتان تحملان لون ليل الصحراء الحالك الغامر.

وهكذا كان المبدأ حجر العثرة الحقيقي الوحيد دون موني.. راح يستعرض ما في الساحة حوله من مبادئ؛ ليعتق أكثرها نجومية وسطوعاً قري لعينها. وبدت له الشيوعية المرشح الأوفر حظاً، وإن كان في داخله امتعاض ونفور مبهمان، يحاذر كل الحذر أن يشي لسانه بشيء منهما. لذلك حمد ربه كثيراً على أنه قد اكتشف، في الوقت المناسب أن موني، المتعصبة ليهوديتها، تكره هؤلاء، وتقول: إنهم عبيد لساكنهم.. ثم إن الشيوعية نفسها أراحته، فأفل نجمها، قبل أن يحسم أمره.

ضاقت به الفكرة وهو يقلبها، ثم يستبعدا الواحدة تلو الأخرى، وغلبه إفلاسه ويأسه، وراح يطرح عليه احتمالات غريبة، حتى إنه تساءل: أليكون يهودياً؟! ولكيلا نظلم الرجل فلا بد من القول: إنه استبعد الأمر تماماً.. فقد فطن، بغض النظر عن استحالة ذلك، إلى أنه يجب ألا يظهر أمام موني رجلاً بلا مبدأ.. فهي قد تكتشف أنه تهود من أجلها، وهو عكس ما يريده.

يا للمرأة الفذة التي لا مثيل لها بين النساء في جميع أنحاء العالم! إنها تستحق أن يفعل من أجلها أي شيء...

وهكذا راح يصارع أمواج حيرة خربت صفاء ذهنه، وقلبت هدوءه عواصف، وشت بها هواته وأخباره، فأقلقت الأهل في الوطن، وحملت الأب الشيخ المتهالك على شد الرحال محزماً بملايينه؛ لاستطلاع أحوال رجائه، التي لم تعد تروقه في الآونة الأخيرة.

واحتفى بملايين أبيه الوافدة، المرمية بأريحية تحت قدميه.. نحرها على مذبح التقرب الحذر الذكي من موني.. ولم يذهب ذلك

هباء، ففي أمسية باذخة في عاصمة الضباب، أبدى أحدهم ملاحظة مباركة، فتحت الأبواب المغلقة أمامه. كان ذلك عندما حرص، كنوع من الظرف الاجتماعي، على تقديم المقعد الأفضل لأبيه، بأسلوب احترامى ملكى إنجليزى. ولم تكد الجلسة تستقر بالشيخ المستسلم المشدود، الذي يتحامل على استنكاره وألمه وانبهاره، حتى قال أحدهم بصوت بارد بطيء النبرات: الآباء مقدسون في الشرق.. وقالت موني، وهو يعبّ كل كلمة تقولها، ويؤطرها كقول مأثور، أو لوحة فريدة: إنهم شديداً الإحساس بانتمائهم، وهذا هو السبب في تعصبهم...

أدرك ما في عبارتها من انتقاد مبطن، وتأهب لنفي التهمة الشائنة عنه، كأن يقول: سامحك الله.. نحن لسنا متعصبين.. لكنها لم تكن العبارة التي ترضى وتعجب موني. وأسعفه أحدهم عندما انبرى، قائلاً: قد يكون التعامل مع الأبوين تعبيراً عن الحب أكثر من كونه تعصباً للانتماء...

وأعجبه الكلام، ورغب في توكيده، فاقترب من أبيه بحركة مسرحية، وانحنى خلف كرسيه، محيطاً كتفيه بذراعيه: والذي هذا أحب الناس إلي... وحرص على انتقاء الكلمات التي تلفت موني: علاقة فكرية وطيدة تربطني به... إنه فيلسوف بدائي مجهول... لا يمكن تصور ما في تفكيره من عمق... وراحت أذيال عباراته تتعثر بالبحث المحموم عن طريقة يوارى بها والده عن الأنظار، فلا يراه أحد من الصبح بعد اليوم.

هكذا بدأت قصة صاحبنا مع (اللانتماء)، وهو اليوم من أبرز دعائه، المؤثرين بألقابه المستحدثة كالتحرر والعالمية والانفتاح،

التي تدهن بها شفرة السكين قبل غرزها في القلوب؛ كي تخفف من ألم الطعنة القاتلة.. وكفى بذلك رحمة وإنسانية!

لكن الأمر لم يتوقف عند ذلك، فلا بد له، بين هؤلاء المميزين فكرياً ومنطقياً وسلوكياً، من تبرير اتجاهه الجديد، ولم يجد صعوبة في أمثال هذا القول: لقد كنت لا منتمياً دون أن أدري، فأنا أمارس عفوية التحرر الخالص الشفاف.. إنه ضالتي التي بحثت عنها طويلاً، وشاءت المصادفة أن أهتدي إليها في ظرف غريب.. وها قد وجدتُها، فلا غرابة إذاً في أن أرمي بكل ما كان لدي، وبلا تردد من أقرب نافذة...

والحق أنه فوجئ بقناعتهم غير المتوقعة بما ساق من تبريرات، لقد بذل جهوداً مشهودة في البحث عن الكلمات والتعابير، ثم اكتشف أنه لم يكن ضرورياً أبته، فقد تقبلوا كلامه للوهلة الأولى ببعض الدهشة التي أحس - بلا اكترات - أنها مصطنعة. وحاول بعضهم مناقشته دون حماسة تذكر، وحاول آخرون الاعتراض دون حماسة تذكر كذلك، حتى إنه أشفق من خيبة مسعاه، بل بدأ يستشعر شيئاً من مرارتها.. أما موني فقد لزم الصمت.. وقد حيرته ذلك، وأربكه ترجح الاحتمالات فيما بين الاستنكار والرضا.. ما يهمه هي.. موقفها هي.. واستمر صمتها حيال دعايته أكثر من جلسة.. ثم بدأ الإعجاب.. هكذا.. وطار صوابه...

وأخيراً وقع ما ظل يسعى إليه طوال أعوام ثلاثة.. أعجبت به موني.. تحققت الخطوة الأولى في الطريق الطويلة، بل إنه هو أيضاً قد أعجب

بنفسه.. أعجب، على الأقل، ببراعته وقدرته على تحقيق ما يريد.. يا للإنسان إذا ما صمم على أمر!.. لكنه في الواقع إنسان متميز.. ألم تقل موني ذلك؟ ومادامت قد قالت، فهو حقيقة.. ولكنه ينبغي أن يكون صادقاً مع نفسه.. مبادئه!! لا تسمح له بالحكم العاطفي: ليس فقط لأن موني قالت، بل هو، فعلاً وبتجرد، يحس أنه إنسان متميز.

فجأة انتابه شيء من القلق.. إن عليه الإلمام بفلسفة ذلك المبدأ، ولا بد من قراءة شيء مما كتب في ذلك، لكن دراسته المتعثرة تقتضي مضاعفة الجهد؛ لتلافي التقصير.. إنه الآن في ورطة، وينبغي أن يعتمر تفكيره للخروج منها.. هل هذا لازم لتستمر موني في الإعجاب به؟ قد لا يكون الأمر بهذه الصعوبة.. هي نفسها، هل تعرف تلك المبادئ؟ وأوغل حذرًا في تساؤلاته، التي جرؤ عليها أول مرة: هم أنفسهم، هل يعرفونها؟.. قد يجد نفسه غير مطالب بالفلسفة الفكرية.. وربما لا يطالبونه بشيء، فهم يبدون بشكل ما غير مباليين بالأمر بالدرجة التي تصور.. ولم تكن لديه الرغبة للتفكير في الأمر أكثر من ذلك.. كل ما عليه الآن أن يهتدي إلى فكرة أو نقطة محورية في المبدأ، يجلوها ويتحضرها دائماً في تفكيره وسلوكه.

وواتته الفكرة التي يطلب، وأنفق وقتاً ليس بالقصير في تصنيفاتها وبلورتها: لا ارتباط بعقيدة، ولا أمة، ولا وطن، ولا قوم.. لا ارتباط بأي شيء كان.. كلمة ارتباط، المفهوم نفسه ينبغي محوه.. ألهاه فرحه باستخلاص روح ذلك المبدأ كما بدت له عن الإحاطة بمعنى ما توصل إليه، وألح عليه الجانب التطبيقي من الأمر، وهو الأهم والأجدر بالانصراف إليه.. إذا استطاع أن يحتفظ بهذه الفكرة حية في رأسه

فسوف تتطلق تصرفاته وفقاً لها، بغضوية مقنعة، وسيغزو أي خطأ يرتكبه إلى سلطان العادة، ويؤكد بموضوعية وإخلاص أنه دائب على التخلص منها.. مسألة وقت لا أكثر...

وقفز مستطيراً.. صعقه نجاحه.. كاد يصفق لنفسه، وهو يستعرض مزهواً الخطوات المعدودات إلى النهاية السعيدة.. الآن، في جيبه الداخلي، كما اعتاد أن يقول، جواز المرور إلى قلب موني.. يا للنجاح!.. يا للصفقة الرابحة!.. يبيع ماضياً لم يحصد منه إلا الخجل والخيبة، بمستقبل ينخرط فيه بأمة من أرقى أمم الأرض.. ووخزته الكلمة «أمة!» إنها لا تتماشى ومبدأه الجديد...

وفي أعماقه، الممعنة في الابتعاد والتواري، همست ثمالة من أصالة غاصة مجهضة: هذا خاص بأمتك.. واستدرج بمزيج غريب من البلادة والغربة: «السابقة».. وصمت قليلاً في فراغ، ثم انتفض عائداً إلى زنارته!.. نثر رذاذاً منعشاً من زجاجة العطر الثمينة، الجائمة فوق كراس ضخم على الطاولة.. عبيرها يشعره بأنه يطير.. وهو أحوج ما يكون إلى ذلك الشعور.. هتف وهو يضغط زر المصعد، منتشياً: إلى موني.. وأحس بخفة سريعة في قلبه.. الحب يصنع المعجزات...

عاد الوالد الشيخ إلى الوطن، معتل الميزانية والمزاج، يحمل في أعماقه امتعاضاً غير محدد الأسباب.. وأمضى مدة وجوده على متن الطائرة بصحبة مصحف صغير، يتلو آياته مبتهلاً إلى الله أن يحفظ ولده، ويكفيه شر تلك المتاهة التي يدعوها لندن، ويعيده إليه ناجحاً مظفراً يفخر به.

راحت اجتماعات الرفاق تحمل كل يوم إلى صاحبنا جرعات من التشجيع والرشاوى، وتقتحم به أبواب مواهب وقدرات يتمتع بها، دون أن يفتن إلى توظيفها في خدمة أهدافه وغاياته، وها هو ذا، وليس بينه وبين استسلام موني وإعلانها الحب والعشق إلا أن يجرد قلمه الذي كان كنزاً مدفوناً، ويثبت أنه كاتب ومفكر، تنشر الصحف مقالاته، وتجري معه دور الإذاعة اللقاءات، وتتعاقد وإياه على كتابة التعليقات الفكرية والسياسية.. وفتحت موني والرفاق أمامه الطريق، صحيفة فصيفة.. ما أكثر ما تعرف هذه الفتاة!

ولمع اسمه، وتوطدت خطواته.. الطريق الذي لم يخطر بباله قط، الطريق الذي يتحدث الجميع عن وعورته وعقباته ممهد، بل مفروش بالورود كما يقال.. وهو -وينبغي ألا يغمط نفسه حقها- موهوب كان مغموراً، فقيض الله له...! وكبح تفكيره بعنف.. زجر تلك الذاكرة المتحجرة، التي لم يرض حتى الآن عن استجابتها إلى الوضع الجديد، وعدل العبارة، مؤكداً بصوت مسموع: «قيض» له من يأخذ بيده إلى الطريق الصحيح.

كان قلمه إنسانياً بكل ما تحمله هذه الكلمة من تألق وبريق، وما يحق لحامل جوازها أن يدخله من بلدان.. والحق أنه كان يملك نصيباً لا بأس به من القدرة على الإعراب عن أفكاره.. يا للأفكار! يا للكنز الذي هبط عليه من السماء! كم سهل له من أمور، وكم أنجز له من أعمال! موني أصبحت له... أكلت الغصة العبارة.. دفنتها في الأعماق التي ما تزال تخصه وحده. ازدردتها كما يجب أن يفعل.. فلا مناص من تجرع الامتعاض الذي يفرضه عليه الإخلاص لمبادئه..

الجهد المضني، الذي كان يتطلبه النجاح في الدراسة، هو الآن في مكانه الصحيح، فإن من الكسب للإنسانية أن يكتب. أما الشهادة الجامعية فقد ضمنها له المخلصون للإنسانية بأساليبهم الثورية، التي تحرر المواهب من البيروقراطية، ولا تعترف بالكبح في سبيل الهدف.. أليست الشهادة مؤهلاً للوصول إلى المركز المبتغى؟.. فإنه يستحقه، بما يحمل من أفكار، وقلمه الفريد، بشهادة الرفاق، ولا سيما موني، ولذا فالشهادة أدنى ما يمكن أن يقدمه إليه دعاة الإنسانية على طبق من ذهب؛ ليتفرغ هو لدعوته...

كل ما لذّ وطاب اليوم ملك له.. عندما يعرف المرء كيف يضع نفسه في المكان المناسب يبدو الأمر كالسحر.. إنه سهل المنال، ولكن الاهتداء إليه صعب وعسير. لقد خدمه الحظ عندما اهتدى إليه، فتوغل بقدم ثابتة، على سجادات حمر، مهيأة خصيصاً لخطواته، وظل يتقدم بخط مستقيم، إلى ما لا نهاية، ثمناً للكلمة «النزيهة» التي تخدم الإنسانية المتحررة من كل القيود الوضعية، المعرقة لتقدمها وتطورها.

اتسعت دوائر نشاطاته، وأدار النجاح الباهر رأسه، حتى إن صورة موني قد تراجعت إلى المرتبة الثانية في قائمة اهتماماته.. وأحس إحساساً خفياً أنها تعتمد ذلك، ولم يتلبث طويلاً عند الأمر، فقد تراخت أغلال الرغبة المكبوحة التي كانت تتحكم في كيانه، وأفسحت المكان لسطوة الحمس لمشروع ضخم وضع في طريقه...

قلمه، الفريد هنا، أكثر فزادة وتأثيراً في بلده، حيث تسود أفكار متعصبة مهترئة تقتضي الإنسانية تحرير المجتمع منها.. أم أن الإنسان

الغربي وحده يستحق أفكاره! واستبدت به الحماسة للمشروع، دون أن يجروا على مناقشة قناعاته بما يفعل، بل إنه لم يرد ذلك، فهو شديد الحرص على مكاسبه الجديدة التي قد يهددها التفكير والتحصيص.

دارت به عجلة الاتجاه الجديد بشكل سحري، وكما في كل مرة، كان الجميع يدفعونه إلى هناك، إلى الماضي الذي هرب منه طويلاً، وأرعبته فكرة العودة إليه سنين عدة، لكنه الآن يعود مصلحاً، يعود متحضرًا متفوقًا، لا صلة له ألبتة بأبن تلك الأرض، الذي هجرها منذ سنين طويلة لتلقي العلم.. يعود لأنه يشفق على أولئك الناس، الذين لا تهب عليهم نسائم الفكر المتفتح. وإن مهمته الإنسانية عظيمة، فهو أقدر على الولوج إلى دخائل هؤلاء؛ لأنهم يعدونه منهم.. هكذا يفكر أبناء العالم الثالث، وكان يضيف دائماً بل الرابع أو الخامس.. وربما العاشر.. يقولها وهو يستحضر صور الجدران الطينية، والنوافذ الصغيرة التي تكاد تلتصق بالسقوف. ومجالس الرجال حول لهب الجمر، والقهوة بالهال، وراتب الحديث، والصبية المتدافعين حفاة، فوق الرمل الحار، تلوث الشوكولا الإنجليزية، والكولا الأمريكية، أثوابهم البيض الفضفاضة، وأيديهم السمر النخيفة.

وعاد إلى الوطن، توزع بين الأرض الأولى، والطائرة، وعاصمة الضباب، وكان دعاة الإنسانية والعولمة والانفتاح قد هيؤوا له مركزاً مؤثراً في ميدان مخاطبة العقول في محيطه.. رئاسة تحرير الصحيفة الأوسع انتشاراً.. رئاسة مؤسسة تربية حساسة الاختصاص.. ووعداً، يعرف أنه منجز، مادام يبلي بلاءه نظرياً وعملياً في الدعوة إلى... ما يريدون.

أما موني.. فقد توارت تماماً.. ولم يعنه كثيراً يقينه أنها كانت تؤدي دوراً مرسوماً في حياته، وربما تستعد الآن لدور آخر، مع رجل آخر.. إنها الآن ليست أكثر من امرأة شقراء جداً، تقيم في بيته العامر، في بلدها البعيد، ولم يصحبها يوماً إلى هنا.. شيء ما في داخله يرفض أن تأتي.. لعله تلك الأصابع الحديدية الخفية، التي تجبره على المجاهرة بما يثبت أو يؤكد الانسجام بين نظرياته ومسلكه، وعلى الرغم من كونه قد مارس ذلك بامتياز في كل المجالات، إلا أنه لا يجرؤ على التفكير فيه، بالنسبة إلى طبيعة علاقته بزوجه.. ولا يتصور.. أن ينمي إلى الناس هنا، ولا سيما أهله والمقربون منه، أن من مبادئه ومبادئها عدم التزام أي منهما بالإخلاص للآخر...

عندما رأى أخاه بالأمس يحتضن وليده، ويقول: إنه قطعة مني، أحس بشيء يسقط في صدره، ويرتطم بقاع سحيق، محدثاً صدى أصم أذنيه، وأطبق على رأسه، حتى لم يعد يرى ما حوله.. إنه لا يستطيع أن يقول مثل ذلك عن سوزان الصغيرة، فعلى الرغم من محاولات أمها تأكيد الشبه بين ملامحه وملامحها، فإنه ثمة حاجز صفيق ساخر يقصيه عنها، حاجز لا يسمح بالقول: إنها قطعة مني، كما لا يسمح بالقول: وما أهمية ذلك! ...

عمله البطولي.. نضاله الشاق لإيصال الفكر المنفتح، إلى أعماق ذلك المجتمع المنغلق، يستأثر بكل طاقاته، يسد عليه أبواب الهواجس والهموم.. هكذا هم الأبطال، الذين يضطلعون بحمل المبادئ الكبيرة، تتوارى همومهم الشخصية خلف وهج مبادئهم، وتحترق رغائبهم في حمى الإخلاص والتفاني في خدمة تلك المبادئ...

هكذا كان يفلسف الأمور، ويبرر التطورات لنفسه، مدللًا إياها، غير ضانٍّ عليها بما تجنح إليه من ملاذ ومباهج. غير أنها لم تكن راضية، وهكذا قرر عدم الالتفات إليها، فالعمل أكثر أهمية من التنقيب عن آثار العادة والتربية والنشأة الأولى.. وهذا جزء من نضال أصحاب المبادئ العقلانية...

ليست أعماقه السحيقة هي الوحيدة التي تضغط.. إنهم الناس من حوله.. إن عليه هنا مراجعة كل عبارة، ومناقشة كل فكرة يكتبها، أو يقولها في الإذاعة أو التلفاز، أو يجاهر بها بين جلسائه. فليس من مصلحة مبدئه إثارة الناس، بل عليه أن يتوغل فيهم برفق وحكمة. أما هناك في صحف الآخرين وإذاعاتهم، فإنه يطلق لسانه ولقلمه العنان.

المهام الصعبة التي توكل إليه الآن، تقتضي الترويج للإنسانية والعالمية، في شؤون الحياة المصيرية، إن عليه تهيئة الناس للاستسلام إلى أعدائهم الأذليين! عليه أن يقول لهم: هؤلاء الذين بأيديهم أزمة الأمور، فاستسلموا إليهم... وكان الأمر صعبًا في البداية. فالضربات المتوالية العنيفة، التي يتلقاها العباد والبلاد، مباشرة وقاتلة، ولم تكن قط صريحة ووقحة كما هي اليوم.. إنها اليوم تختصر كل مقولات العقود السابقة، بصرخة فاجرة مفضوحة، لا مجال لتأويلها: إما الموت، وإما العبودية.

ونظر إلى قلمه، فلم يجد موضعًا، ورفع صوته فلم يلق له أذنًا.. وتجراً على الالتفات والسؤال: كيف أجهر بما أومر هنا، وبين هؤلاء؟!

وجاءته الصفعة سابقة الجواب العاصف، فالمعركة في ذروتها، ولا مجال للتردد، ولا مكان للمراعاة: صرح.. تصرف.

وانحنى بذلٌّ، إنه الثمن الحقيقي الذي لم يدفعه حتى الآن، على كثرة ما دفع.. كان يعرف أنه لا بد أن تأتي تلك اللحظة، وها قد أتت..

راح ينفث سمه في لدغات سريعة قاتلة هنا وهناك، ولا سيما من فوق المنابر البعيدة، وفي الصحف والمجلات ومحطات البث التي تطوي المسافات إلى تلك الأرضين، فقد كانت المواجهة تتطلب قدرًا من الوقاحة والصفافة أكبر مما استطاع حيازته حتى اليوم.

كان الناس يزرحون تحت وطأة الحديد والنار، مثبتين أنظارهم على العدو الصريح، يترقبون انقضاضاته المتوالية، ويتقونها بأجسادهم الحية، التي تتصهر وتسيل على حجارة محارق النضال والصمود. وكان هو هنا، ولم يكن الوحيد، كان يحمل حربته الوضيعة خلسة، ويتنقل بها بين الأرجل بحذر، يترقب هدفًا آمنًا؛ ليسدد إليه طعنته بنذالة وخسة، ثم يمسح وجهه الملطخ برشاش الدم المغدور؛ ليتيح لعينيهِ المرعوبتين رؤية هدف آخر...

عندما قال له أبوه، وهو على فراش الموت: أنت جبان وخائن.. لم يجبه بشيء، كان كل همه أن يقضي على ذلك الشيخ الفاني قبل أن يسمع كلماته أحد سواه.. ولم تعن له أخواته شيئًا، فهداياهم وهباته ومننه تسكتهن، ودعاياته الزائفة تقنعهن.. أما أمه ففجوز متهاكة، لا صلة لها بالعالم إلا من خلال الطعام والشراب.

وقضى أبوه بين الغضب والرجاء والألم. واقتصرت صلاته بالأهل على اللقاءات الخاطفة، التي كان يبررها بانشغاله الدائم.. أما سمومه فكانت تبث عن طريق أكبر مجلة في بلده، ولأه صانعوه رئاسة تحريرها،

بما يملكون من نفوذ، كما كانت تبث من خلال نشاطاته الاجتماعية والسياسية، إلى كل الجهات التي تطولها أيديهم.

* * *

تسلل جرس الهاتف إلى غرفته هذا الصباح، ملحاحاً عنيداً متحدياً. فتلمل في سريره، وتمطى مستنشقا عبير العطر الثمين الذي ضمخ به رأسه مساء أمس.. صبّ أولاً جام غضبه على زوجته، لكنه سرعان ما تذكر أنه هنا، وأنها هناك في بيته الآخر في عاصمة الضباب.. وتحفز ليشتم الخادم البليد، ثم اكتشف أنه لا ينام الليلة في البيت.. وقرر تجاهل الأمر، والعودة إلى النوم...

تتابع الرنين واستمر. فنهض مغضباً، وغادر الغرفة إلى البهو.. رفع السماعه دون أن يقول شيئاً، فوصله صوت أنثوي: أنت «...»؟

أطارت صلافة الخطاب، وانتفاء اللقب، وعدم التحية النوم من عينيه، وسأل بشيء من الحدة والاستنكار: من المتكلم؟

لا يهم الاسم، فلن تعرفني.

سأضع السماعه.

ستسمعني أولاً.

من يتكلم؟

اسمي فاطمة.. فاطمة لا تعرفها.. ستعرفها من كلامها.

هدأ من حدة لهجته: تفضلي...

أنا واحدة من ناس هذا البلد، أسترق الوقت من مشاغلي الجمعة لأقرأ، وأوفر من الضرورات الملحة؛ لأبتاع الكتب.. وقد قرأت لك ذات مرة فدهشت، ثم قرأت ثانية، فقررت ألا أقرأ لك بعدها، ولا أشتري صحيفتك أبداً.. لكنها وقعت في يدي بعد حين، وغلبني الفضول أو الأمل فقرأت.. ورأيتك كما أعرفك.. كتبت إلى الزاوية الحرة! في مجلتك، مبدية رأيي فيما تكتب، لكن رسالتي لقيت مصير الكثيرات من أمثالها؛ لأن سياسة مجلتك تكريس فكرك، وقررت أن أعمل بفاعلية ضد الوباء الذي تنشره بين الناس.. شكلت مع كثيرات وكثيرين ممن يشاطرونني الرأي فريق دعاية ضدك وضد مجلتك. ونجحنا في حمل الكثيرين على الإقلاع عن قراءتها.. وبالأمس سمعتك تقرأ تعليقاً سياسياً من إذاعة «...» أحسست أنه قد آن الأوان لإسماعك رأي الناس الحقيقي فيك.. أنا واثقة من أنك ستسمعني، أليس هذا من مبادئك؟

استنجد بما تقرضه عليه مبادئه من روح رياضية، وتصنع ضحكة لا مبالية: هات يا سيدتي...

تجاهلت أسلوبه المسترضي المتملق: سأقول لك شيئاً واحداً.. إن أي ثمن في العالم لا يعدل المرء نفسه.. قف أمام المرأة، وانظر ملياً في عينيك، فأنا واثقة بأنك لم تفعل ذلك قط؛ لأنك من أولئك الذين يخشون اكتشاف الحقيقة.. فإذا فعلت، ووصلت إلى مرحلة التقرز، فربما استطعت إنقاذ نفسك...

وأغلقت الهاتف...

هبطت يدها كالشلاء بسماحته، والتفت ببطء إلى المرأة عن يمينه.. مرحلة التقرز! قد يصلها، ولكن... هل يستطيع إنقاذ نفسه؟

obeikandi.com

رحلة إلى ..

أيها القلب.. عم تبحث؟!

... أبحث عن ليلة لا يؤرق رقادي فيها حنين، ولا يزلزل سكينتي
شوق أو احتراق...

أ إلى الآن!

وفيم العجب الآن، وما كففت عن ذلك يوماً؟

الآن توشك أن تثقل كاهلينا السنون...

تعرفين أنني لا أعترف بالسنين، حتى عندما تعترف بها القلوب.

أيها القلب.. ما كان لك أن تستوطن صدري، فأنت قد خلقت للريح
والفضاء.. ولا تتفك تطير وراء حلم ما يزال حلمًا، ولعله ليس لك...

مادمتُ صانعه فهو لي.

أسأل أيها القلب.. هل تستحق هذا الحلم؟

الأسواق والأحلام وحدها لا يحكمها قانون الاستحقاق.. ولا توزع،
كالأجور، حسب العمل...

... ولذلك هي عشوائية وخرقاء...

ولكنها تذيب قسوة الحياة.. ثم إنها ليست عشوائية، بل هي محكمة بقانون الإرادة الصارم، الذي لا يعترف بالتعب والألم وقسوة الحياة.

يا لنبضك المتمرد المجنون! تشتري ألم الشوق بقسوة الحياة!
... ألم الشوق!! ألم الشوق هو الحياة.

وماذا بعد يا قلبي.. هل أستمّر في مشاركتك البحث عما تريد؟
مادمت أنبض في صدرك، فلن تحتاج إلى إجابتي، ولن
تتظريها...

وإلى متى؟!

إلى أن يتوقف هذا النبض...

وهل تحتمل، وأحتمل ما تريد؟.. إنك لتنوء بأشواقك، وهي مطويات
فيك، فكيف إذا دفعت آخر رفق فيك ثمناً لها؟
عندئذ لن تكون الأشواق، ولن أكون.

لا أجرؤ على مطالبتك بالتخلي عن أشواقك، فلن أرضى إذا
استجبت لي أن تكون قلبي.

الآن، هذه أنت.. هذا نحن...

أدري!.. أتمنى أحياناً أن تدمرني عواطفك، أو أجد الوسيلة
لامتلاك أزمتها؛ لأواقع الحياة كما يفعلون.

لن تعيشي الحياة كما يفعلون أبداً، فعواطفك قدرك الذي
اخترت...

العيش معك.. الموت معك.. العجز عن احتمالك، والعجز عن
التخلي عنك، كل ذلك مرّ وحارق، أنوء بعبئه ولا أريد التخلص منه...
أرأيت هذا قدرنا، وجدنا معاً وسنبقى معاً.

ومتى ينتهي الترحال أيها القلب، الذي لا مثيل له؟
لن ينتهي أبداً.. أنسيت أننا اتحدنا يوم تعاهدنا على أن تخضعيني
إلى نواميس الحق والخير، مقابل الاعتراف بأشواقى؟
فما لأشوقك أن ترهقني من أمري عسراً؟ مالها تحملني ما لا طاقة
لي به؟

لا تصدقي ذلك.. إنما يدفعك إليه إيثار العافية.. إن أشواقى قسمة
بيننا، ولا سكينتك لك إلا بسكينتي...
ولكن سكينتك عزيزة المنال.. وها قد انقضى العمر، إلا أقله، ولما
نلتقها...

وهل ألوت في ذلك جهداً؟ إنك لتلوميني على أنني ما أنفك
أبحث...

اعذرنى أيها القلب، إذا ما قسوت عليك.. فالعلك تبحث، حيث لا
يجدي بحث.. ولعلك تبحث عما ليس له وجود...

كرّ الليالي وتقلب الأحداث علماني أين أبحث، وعمّ أبحث.

فأنت الآن تعرف عمّ تبحث وأين...

لا تتسرعى بالتفائل، وإن كان يعزّ علي قول ذلك.. فإنه لا يكفي من
ينشد الحلاوة أن يعرف أنها في ثمرة فوق نخلة.

أيها الصلب العنيد، الذي يرهقني جدلاً.. أي أمل هذا الذي وراء
إصرارك وعنادك إذا؟!

إنه الوعد الحق بالسكينة والقرار، وأنا مطمئن إليه...

ولكن الدرب طويل.. ولا بد للرحلة من زاد.. ترى هل يعزيك أن
تلقى من يملك مثل أشواقك؟

لم أعد أجروّ على الجزم بذلك.. فما أظنك نسيت أولئك الأخلاء
الذين التقينا على مدار الأيام.. أولئك الذين كانوا يصيخون إلينا..
يضحكون ويبكون معنا.. فتماهيهم بكل شوقنا إلى القرار، ونحتضنهم بكل
عطشنا إلى الألفة، ثم فجأة تمتلئ سماواتهم بالدخان والرمود، وتقصّ
بجارهم بالظلمات والأنواء، وينبت الشوك والصبار كالحراب، في كل شبر
من حقولهم، فتتسلخ عنهم، مغادرين على جدران حيواتهم مزقاً، تظل
أماكنها أياماً وليالي وسنين تنزف فينا، جارفة بقايا الأمل والرجاء...

ها أنت ذا لست ناسياً ما خضت بي من غمار؛ لتصل إلى هذه
الأرض، أو تلك السماء، أو نجد لنا نقطة في الأثير نستوطنها.

وكيف أنسى.. وما كففتنا عن ذلك قط؟ ثم ها نحن أولاء على شطآن
الشوق المترامية من جديد، ولا بد لنا من مرفأ أو سفينة...

لا مفر من الانصياع إلى أشواقك أيها القلب.. عهدي لك يلزمني
بذلك.. ولكنني لا أريد الارتحال في البحر.. الموانئ والسفن والامتداد

الغامض، بقدر ما تغريني، تحمل إلي الارتعاد.. لن أتحمل غدر البحر..
فمن يدري أي جراح تلك التي قد تسبقه!

هيا بنا.. لا تهمني الجراح، ولا غدر البحر، مادمننا معا.

أتخشى الرحيل من دوني؟

لن أرحل من دونك أبداً...

* * *

أشعر بالبرد يا قلبي؟

إن للانتظار لدفعاً.. إن له جناحين يحملان إلى الآتي، بما فيه من
دفع الأمل...

لكنه إذا طال بعث الفكر.. فها نحن أولاء على عتبات خريف العمر،
لا نعرف لنا محطة، بل نتكوم على رصيف في انتظار قطار، وحيدين إلا
من الليل والصمت والوحشة.. وقد طال بنا الانتظار...

ألا تعود بنا إلى البيت.. ننام.. نستمتع بالشمس والهواء.. نستجدي
القصد والإيمان سكيناً وسلاماً؟

القصد والإيمان.. ذلك الوعد الحق بالسكينة والقرار، ولكن لعل
رحلة الحياة لا تزال طويلة، فلا بد من زاد لما تبقى من أيام العمر...

أسألك للمرة الأخيرة: هل تحتمل المزيد من التشرد وراء الأشواق؟
المزيد من تشمم الريح، وتحسس نبض الأرض، والتطلع إلى النجوم؛
التماساً للطريق إلى ماء الحياة؟

لا بأس ما دمنا معاً...

يا قلبي، الذي أعذبه ويعذبنى.. لكم من التجارب سيتسع العمر،
وقد بدأت السنوات ترهق الكاهل، وأعجب كيف لم ترهقك؟!

لقد أرهقتني، ولكنك لا تشعرين.

كيف؟ وأنت لا تزال تحملني على الترحال والمغامرة بهذه الحماسة
التي أغبطك عليها؟!

ألم أقل لك: إنه قدرنا؟

إنه حقاً لقدرنا.. فهيا بنا.. إن في الأفق شبح قطار...

اليوم قد تطول الرحلة أكثر.. ومن يدري، فقد لا نصل أبداً.. فأنا
قد عزمت ألا أترجل بك في محطة كتلك التي تقف فيها القطارات،
وتنتهي عندها الرحلات.. اليوم أبحث عن محطة خاصة بنا.. محطة
لا يقرّ بوجودها أحد، لكنني أريدها، وسأسعى بك إليها، أيتها المعذبة
بي، كما أنا معذب بك...

كأنني اكتشفت، الآن فقط، أنك عندما تسعى إلى أمر لا تفكر قط
في الطريق، ولا تكاد ترى سوى ما تسعى إليه...

لا يحملنك عزمي على الظن أنك ستجدين في محطتي ما يرضيك
ويرضيני، فقد تستقبلنا بعاصفة من الرمل، أو بثلة من رجال الشرطة،
ينقلون أعينهم بين أوراقنا ووجهينا، ثم يشيرون إلينا بالعودة إلى
أماكننا؛ لأننا لن نجد لنا مكاناً في بلدتهم.

لا بأس عليك يا قلبي.. إن من يعتزم خوض المجهول بحثاً عن مثل غايتنا فلن تضيره عقبات الطريق.. ولن تستمر الرحلة إلى الأبد، فلا بد أن نترجل في محطة، ولن تكون أبخل من تلك التي انطلقنا منها.

من يدري ؟.. فقد تكون كذلك .

فلتكن.. إن باب الرحيل لا يغلق أبداً...

فهاتي يدك.. إن الطريق، على ذلك، طويلة، والترحال مضنٍ...

أي راحلين نحن! فلا حقائب لدينا، ولا نملك ثمن بطاقة الركوب.. ولا نعرف إلى أين يسير بنا ذلك القطار الذي لا يكفّ عن المسير.. ولكن في الخيال محطة...

آه.. ها أنت من جديد كم أعرفك.. تخففت فجأة من كل ما كان يثقلك، وانطلقت معي.. في رحلة حمقاء بلا مال ولا متاع.

لا حاجة بنا إلى المال والمتاع.. أنا لدي قلبي، وأنت لديك الحلم.. ستقدم إليّ النبض، وسيتولى قلبي ما تبقى من العمل، وسنعرض بضاعتنا في أول محطة ننزل فيها...

حديثك يحمل على الشجن.. يعدني بحلم دافئ لا ي طال.. ترى هل أجد يوماً ذلك الرفيق، الذي يقف معي في اللحظات البائسة، ويركب معي القطارات إلى المجهول كما تفعلين؟

يا لولعك بالشجن أيها القلب.. ها قد منحتك ذلك الرفيق، قلبي.. وما كان إلا كذلك...

إنه ليس رفيقي.. إنه أنا...

دوامتك المضحكة المبكية تلك.. أخرجني منها، وعدّ بنا إلى ما كنا فيه.. أريد منك وعدًا صريحًا وقاطعًا بالمساعدة؛ لنحصل على ثمن بطاقة الركوب.

أي وعد هذا الذي تطلبين! إنه وعد قائم، ولا سلطان لي عليه.. عندما أحس بدفع الحياة أو بردها، بشوكها أو حريرها، فأنا لا أتخلّى عن الحلم، ولن أضن به عليك...

وإذا انتهت الرحلة، أو نادتنا رحلة الأبد، أو شاخ القطار، أو استبدلت مركبات الفضاء بقطارات العالم، قبل أن نجد من يشتري بضاعتنا؟

لا بأس.. مع ذلك لن يعيدنا أحد إلى حيث كنا؛ لأنهم لن يجدوا لدينا الأجر اللازم.. وهكذا نكون أقرب إلى محطتنا التي لا نعرفها منا الآن...

...ومن يدري؟ فقد تسلمنا رحلتنا، بعد كل ذلك، إلى مرمى الأشواق.. إلى حيث قد تجد لك مقعدًا تقرّ فيه، أو سريرًا يمنح جرمك المتعب المقرور الراحة والدفع، أو جدارًا تلتصق به متأملًا بأمان، من فوق كتفيك ورأسك، صدره الرحب الذي تستوطنه، أو منضدة تحتضن أوراقتك وأقلامك ومرافيك...؟

أترين ذلك واقعًا؟

... لا أريد الغوص إلى ما وراء هذا الصمت، فتكلمي.

أخشى ألا تقهمني...

أفهمك؟ ... أنا أعرف ما ستقولين...

حسنًا أيها القلب، إذا كان الترحال قدرنا، فلنجعله جميلًا أو مقبولاً...

هكذا يتجمل الإخفاق.. ما أبلده، وهو يصير على ممارسة تلك اللعبة المفضوحة!

لا تسترسل.. اسمع.. ثمة طريق مضمون النهاية.

أعرف تلك الطرقات.. أعرفها كلها.

إنه من ابتكاري...

كذلك أعرف ما ستبتكرين، ولن يعدو بعضًا من التنازلات بصيغة جديدة...

ليس هذه المرة.

فاسمعي إذا: لن يضيرنا أن يكون مبتغانا مزيجًا من الواقع والخيال، لن نطالبه بتشدد أن يكون كما نتوقع؛ لئلا نكتشف فجأة أن ما نسعى إليه مجرد خيال. أليس هذا ما ستبتكرينه؟

... أيها المتعب الذي يجمع النقيضين: التمرد والصبر.. أيها المحكوم بالمسافة الهائلة بين ما يمكن أن يملك وما يكفيه.. متى ستتعلم أشواقك القناعة!

عندما يبرد كل شيء، ويسكت كل شيء، ويظلم كل شيء. وأنام في صدرك، فوق ذلك الكوم الهائل من الأشواق والآمال والرغبات، عندها سأكون غاية في القناعة، فلا أنزع إلى غاية، ولا أتطلع إلى أفق؛ لأنني في تلك اللحظة، لن أكون بحاجة إلى أي شيء.



حكمة من صبي

مدّ يده إلي بورقة جمع إليها قلمًا، وقال، وهو يخرج رأسه المشعث من جيب قميصه: اكتب لي بعض الأخبار الجديدة.. المثيرة.

- أي أخبار؟

رمانى بنظرة لوم مداعبة: .. أخبار الدنيا.. أستاذ التربية العسكرية يسألنا أحيانًا عن آخر الأخبار.

تناولت الورقة والقلم، وأنا أشير إلى ساعة الجدار مؤنبه: السابعة والرابع، الآن تذكرت الأخبار؟

أجاب، على عجل، وهو يحشر قدمه في حذائه الغليظ: رؤوس أقلام.. ما قتلته البارحة عن المرأة وأطفالها الست في الجنوب.. قصف منشآت النفط في شمالي العراق...

ونهض يضرب بقدمه الأرض، لتستقر في الحذاء، وهو يضيف بسخرية مرّة: ما شاء الله.. الشمال والجنوب!

انزعجت عبارته الأخيرة فتيل غضبي، فقد سررتي تلك اللفتة الذكية، بقدر ما ألمتني ترجمتها العفوية لإحساسنا بالإفلاس والمرارة أمام واقع غاشم، يستهدفنا بقوة فاجرة، ويحرق، فيما يحرق، توقد هذه القلوب النقية والعقول الذكية، التي كتب عليها أن تسحقها رحي ظالمة، تديرها أيدي أعداء لا يرقبون فينا إلا ولا ذمة...

ازدردت غصّتي وشرعت أكتب على عجل، مؤجلة اللوم.. ثم دفعت بالورقة إلى ولدي ذي الاثني عشر عامًا، وهو بالبواب يستعجلني؛ كيلا يتأخر عن وقت المدرسة. وقلت بعتاب رقيق: من الآن فصاعدًا عليك الاطلاع على الأخبار بنفسك.. أصبحت شابًا...

قال وهو يطوي الدرج قافزًا، دون أن يلتفت إلي: أصاب بالاكْتئاب كلما استمعت إلى نشرة أخبار.

قلت: سنتكلم في ذلك فيما بعد...

عندما أنهى واجباته المدرسية، هذا المساء، لم أجد صعوبة في العثور على محطة بث تستعد لتقديم نشرة أخبار.. ناديته: تعال.. حدثني عما جرى في درس التربية العسكرية اليوم، ريثما تبدأ نشرة الأخبار، فنستمع إليها معًا. قال بلا حماسة: ... الجميع تحدثوا عن الموضوعين.. بعضهم ذكر أيضًا رد المجاهدين السريع.. لم تكتبي لي عن ذلك...

قلت معذرة: لم أكن قد علمت بالأمر بعد.. ثم إن عليك الاستماع والكتابة بنفسك، كما قلت لك...

بدأت نشرة الأخبار.. جعلت أستمع إليها، حبيسة دائرة الألم اليومي الذي أصبح خبزًا وماء لا غنى عنه ولا غناء فيه.. وفجأة تذكرت الصغير القابع إلى جوارى.. استرعاني صمته وهذوؤه، فجعلت أراقبه خلسة.. كانت عيناه مسمرتين على شاشة العرض، وأصابعه تضغط بتوتر على جانبي جهاز التحكم الذي يمسك به.

لم أكن أسمح لأولادي بالكلام، وهم يتفرون.. مهما كانت المادة التي تبت.. وعندما بدأت الأخبار العالمية، مدت إصبعي إلى الجهاز الذي يمسك به ولدي؛ لأكتم الصوت.. والتقت عيناى عينية، كانتا كاييتين، يزحف التعب على أجفانهما.. تمطى، وقال مبتسمًا: شيء بشع.. لماذا يقصفوننا هكذا؟

مرة أخرى وكما حدث في الصباح، منحني صغيري تلك النعمة المسروقة من إحجاف الواقع وقسوته.. ضمير الجماعة في «يقصفوننا» كان كالسحر.. نظرت إلى ولدي، ونظرت إلى التلفاز.. ما أضالهم أمام تلك الكلمة التي ينطق بها طفل!.. كيف يحاولون تكريس المستحيل!.. كيف تنفصل عرى ما تزال موصولة منذ آلاف السنين، يحس بها أطفالنا كما يحسون طعم الحلوى، ويتذوقونها كما يتذوقون نكهة اللعب!

انتبهت إلى أنه ينتظر إجابة سؤاله، وكمن يستهلك الوقت بانتظار الإجابة راح يتساءل: لم لا نرد عليهم؟.. ألا نملك أسلحة؟.. ماذا سيفعلون لورددنا، هل يدمروننا؟.. أحسن من هذا الذل...

سيل من أسئلة وتعليقات قد أعرف إجاباتها، ولكنني لا أعرف كيف أوصل تلك الإجابات إلى فتى في الثانية عشرة، فتحت له النافذة على مشهد مشوش مشوه لا أملك له تفسيرًا، ولا أعرف عليه تعليقًا.

أضاف كأنه قد يئس من الجواب.. أو لعله أدرك بلبلي، فطالما تبادلنا، نحن الكبار تلك الأحاديث على مسمع منه: أمي.. كيف نسمح أن نقصف هكذا، ولا يرد أحد..؟

ما أوجع براءة هذه الكلمات! وما أصدقها! كيف نسمح؟ لا أحد يرد.. أه يا صغيري.. إلى كم من الوقت والجهد نحتاج لإجابة سؤالك؟

عاد ينتظر إجابتي مبدئياً تجملاً أو إشفافاً أو تعاطفاً، وكانت مرارة التخبُّط في أمثال ذلك الموقف أمام أخته الكبرى، قد بعثت على لساني متحفزة للانقضاض على الكلمات في مهدها، ورغم أنف السنين الثماني التي انقضت، ورغم أنف الظروف التي تدعي أنها تغيرت.. تلك المرارة التي عكست معاناتي آنذاك على الورق، حيث لم أجد لي مفرغاً غيره، أبته هموم أم تواجه حيرة أطفالها وألمهم أمام أحداث لا تخضع إلى منطق، ولا تعيها أذن واعية:

ماذا أقولُ إذا تعجَّبَ خالدٌ؟

ماذا أجيبُ، إذا تساءلَ مصطفى

طفلاً ربييتِ الخلائقُ فيهما

قبلَ الجسومِ، على المروءةِ والوفا

فلم يكن الوقت قد طال بي كثيراً، وقد أصبحت أمّاً، حتى أدركت خطأ المقولة المتداولة التي تدعي أن الصغار لا يفهمون، فقررت أن أفتح كل البوابات الممكنة بيني وبين أولادي، وها أنا ذي أجدني في واحد من تلك المواقف التي لا أحسد عليها، وقد نصحت لولدي أن يطلع على ما يجري من أحداث في عالم لا يفهمه صغار ولا كبار...

التمزق الذي أعانيه مأساة كل أم مسلمة، تتجاوز الأمومة عندها الغريزة، ويتجاوز البنون زينة الحياة الدنيا، إلى صنع الإنسان الكريم، فالحياة الكريمة، كما أرادها الله، واستخلفنا في الأرض لصنعها...

على الرغم من علقم الذكريات المتربص بي، في ليلة أشبه ما تكون بالبارحة، كان لا بد من تعليل النفس بمتعة محاورة الصغار،

والتلذذ باستشراف عوالمهم النقية.. فقد كنت وما زلت أمارس ذلك الفن كوسيلة لبعث الخيال، وإحياء غضارة الروح لاستلهاها الصدق والنقاء، كلما شدني شوق إلى القلم...

ما أروع أن نصغي إلى الأطفال! صوت الحقيقة الناصع الذي لم تشوّهه الأكاذيب، ولم يمسّحه بهتان القوة الغاشمة.. صوت الفطرة القوي، بما فيه من إيمان، وقصد تلقائي، يلغيان بعبارة طفلة نظيفة جهود الظلام عبر قرون لطمس الحقائق وتشويه الوقائع.

ومرت في خيالي صورة، لا أذكر هل مررت أو سمعت بها، أم هي من بنات الخيال الذي تشحذه الحاجة.. لو أن الأطفال يحكمون هذا العالم! ودون رويّة توجهت إلى صغيري، الذي لم أعد أخفي عنه رغبتني في أن ينتظر ردي على استفساراته: نجيب.. ماذا لو جعلوك حاكماً للعالم؟

لم يفاجئني سؤالي كثيراً، ولعله لمس من بلبتي ما زهده في الإجابات التي كان ينتظر، فرحمني ولم يمارس إصراره المعهود، وأطلق ضحكة صغيرة متهمكة: ... للعالم كله؟!

- أجل ...

قال بلهجة مسرحية: أشتحر...

- أنا جادة... أريد أن أعرف إجابتك.

- ... كيف يمكن أن يحكم هذه الدول المختلفة في كل شيء حاكم

واحد؟!

من جديد فوجئت بمنطق الطفولة النقي، المنطق الذي يؤيده الواقع، ويكابر في التعامي عنه وتعميته المزيفون الذين يحملون بإخضاع الدنيا إلى مصالحهم ورغائبهم، واتخاذ أرض الله مزرعة يستثمرونها، وعباده سخرىً...

قلت أجاريه: ... ليس كله.. فلنقل حاكمًا للدول العربية.
صمت قليلاً ثم هز رأسه بأسف: لن يستمع إلي أحد.. سيقولون:
ولد صغير!

- حسن.. فحاكمًا للأطفال...

لم يكن هذا ما أريده، ولكنني كنت مجبرة على التنازل لجره إلى الحديث، وصرف اهتمامه عن طلب إجابة مباشرة لا أملها، أو استلهاهم كلامه إجابة قريبة المرمى من الحقيقة الحالكة، بدلاً من إجابة في صميمها، قد يضطرني إليها الكلام.

بدأت الحماسة تتوثب في عيني ابني، وهو يسوي جلسته استعداداً لحديث يهمه، وقال باندفاع: أولاً نتفق على أشياء...

- حسن، كيف تتفقون؟

هدأت حماسه قليلاً: ... ماذا تعنين؟ .. نتفاهم...

- كيف تتفاهمون؟

قال بشيء من الاستغراب: أعني.. كالعادة.. هناك أشياء تهمنا جميعاً.. نتفق على تنفيذها..

أدركت أن الاستمرار في الحديث على هذا المنوال لن يخرج عن إطار: نتفق ونتفاهم.. وتعلمت من عدم قدرة أي منا على تجاوز هذا المطب الدبق، للانطلاق إلى فرجة في أسوار الواقع التي تسجننا.. وأخيرًا بدأت أعزي نفسي، بل ألومها، فهل كنت أتوقع أن أخرج من جلستي تلك بحلول لمشكلات العالم!

عندما لمس ولدي دخولي من جديد في دوامة التفكير، انصرف إلى ما يهمه من الحديث غير ملتفت إلي، فأنهمك في شرح جملة مطالبه الطفلية، مصرًا على التحدث بضمير الجماعة، كما لو أنه أطفال العالم كلهم.. وعاد نرين العبارات النحاسي الحاد، وبريق ضمير الجماعة الساحر يطفو على صفحة الفكر، وتدور رياه الثقيلة، فتبرد سطحها المألن نتوءات تحجب الشمس والهواء، ولا تكاد تسمح لأنملة بالتسلل إليها لتتهزها، فتوقظ الإحساس في خلاياها الممتومة.

لقد رفض أن يكون حاكمًا من الطراز الذي نعرف.. لم يكن إلا واحدًا من الآخرين، يعمل معهم، ثم يقدم الحل ببساطة.. الحل الوحيد الذي لا نجهله، ولكننا لا نطبقه أبدًا.



obeikandi.com

من مذكرات هشام بن عمرو بن الحارث

٧ - حزيران - ٦١٩ م

صورة صغار بني هاشم العجاف، يتراكمون في عجاجة من الغبار
شُعْتًا، مهلهلي الثياب، لا تريد أن تفارق مخيلتي.. تسدُّ علي أفق النظر
والفكر، أينما وجهتهما.. أعز الناس، وأكثرهم رفاهية.. المطعمون
المنعمون، جوعى حفاة عراة، أقصى ما يحلمون به بغير محمل
بالطعام، يترقبونه في فرجة الشعب الأيام والليالي الطوال؛ ليسدوا
الرمق بما يحمله من زاد، ويستمسكوا به في حصارهم المرير بين تلك
الصخور القاسية...

الرضع، الذين قاوموا الموت.. الذين امتصوا الحياة من صدور
أمهاتهم، كبروا.. عرفوا من الفرح.. الفرح باللقمة، بعد أن كان مقررًا
لهم الفرح بريادة العرب، وسيادة تلك الأصقاع...

يا للجريمة! بل يا للعجز! إلى متى سأظل أختلس غفلة أولئك
الجلادين الأجلاف، الذين يسدون المنافذ دون الحياة، وكأن غايتهم
القضاء على «محمد» وصحبه...؟! لقد طال الحصار، وأربى الأمر
على العداء.. ولم يعد يخفى على أحد أنه خدعة من الرؤوس الآثمة،
انطلت على الناس، فأيدوا وعاضدوا.

... يا لتواضع ما تقدر عليه يا أبا عمرو.. ما تزال تخرج إليهم متخفياً، ببيعرك الموقر قمحاً وتمراً، برغم يقينك أن ثمة من يفعل مثل فعلتك.. فما يعقل أن تنتفي المروءة فوق تلك الرمال.. وما يعقل ألا تنجب تلك المفاوز الولود رجالاً ذوي ألباب سواك! يا أبا عمرو، ألم يئن للحق أن يجهر بما يجهر به الباطل!

ما هذا العتاب الرفيق الخانع لذاتك! وما هذا السكوت الشائن عما تقتضيه الهمة والمروءة! وما هو الثمن الذي تشفق أن تدفعه، إذا ما أخلصت لما تراه صواباً؟!

علي أن أتحرك، أن أفجر ذلك الرجل الذي يعتمل في أعماقي، فلا أفعل أكثر من زحزة غطائه قيد شعرة، كلما أحسست أنه على وشك الانفجار.. فلينفجر ذلك البركان، وليتم ذلك بحكمة.. وما استجد عاقل بحكمته فخذلته.

٩ - حزيان - ٦١٩ م

اليوم لا شيء يعكر صفوي، وقد فرغت لشعور يحتدم في صدري، وينفث النار في أوصالي، ويشعل في نشاطاً بعد عهدي بمثله.. فقد أنجزت عملاً، أتاح لي نفساً عميقاً مريحاً، وأزاح عن صدري كابوساً ما انفك يحرمني لذاذة ارتشاف الهواء أعواماً ثلاثة...

أن تشعر أنك تقوم بما لا تريده تحت ضغط ما.. أن تحس، أنك مصادر الإرادة والحرية، شيء فظيع، لكن ما يقتل حقاً أن يفرض عليك التصرف بشكل مخالف لما تريد، ثم يطلب منك تبرير ذلك التصرف، وابتكار الحجج المنطقية لإقناع الآخرين بسلامته وصحته.. هذا وحده كفيل بقتلك...

ما أشد ندمي وأسفي على كل يوم مضى دون أن أحسم أمري، وأفعل ما فعلت اليوم! حقاً إن الانتصار مثل الهزيمة، كلاهما يبدأ من الداخل.

لم أشك لحظة في أن تلك الفكرة تدور في رؤوس الكثيرين، أن ذلك التحرق إلى إحقاق الحق، وإزهاق الباطل، ليس حكراً علي، لكن ذلك لم يكن كافياً، ولم يكن ثمة بدّ من اتخاذ الأسباب بكل عناية وحرص. وقد هداني أعمال الفكر، إلى البحث عما أستطيع تسخيرهُ لخدمة غايتي.

أستطيع استغلال ما جرى بين أبي الحكم، أو أبي جهل كما بات يكنى، وزهير المخزومي، لتفجير مواجهة بينهما، تتيح الفرصة لإعادة الحسابات.. يا لوقاحة هذا المتجبر وصلفه الذي لم يجد من يكبحه!

فقد تخدم الأقدار القوة الفاشمة بضعف من حولها، فتتبختر بحماقة قدرة، وتدوس كل من يخالف لها رأياً، أو تسول له نفسه النيل من سلطانها عليه.

أبو جهل لا يعترف بحق زهير، الذي تقرّه جميع الأعراف والناس، في برّ أمه، القابضة مع المحاصرين في شعب أبي طالب، وأخواله الذين يتولون شأنها، في تلك الظروف القاسية. وما حدث منذ أيام قليلة لا يزال يُحفظ زهيراً، ويجري على لسانه ما يستحقه أبو جهل من شنيع الصفات، كلما ذكر الأمر...

إن ما في أعماق زهير ليس الغضب من محاولة أبي جهل ردّ ما يحمله من زاد إلى أخواله، فتلك الشجّة البالغة التي نالها وجه أبي جهل كان يمكن أن تطفئ غضبه.. زهير في داخله يعرف أن أبا جهل يجب أن

يهزم، وأن الذين في الشعب يجب أن يتحرروا من قيد الحصار الآثم، لكنه لا يجد الطريق إلى تنفيذ ذلك. وهذا ما دفعني إليه: يا زهير... أما، والله، لو كانوا أحوال أبي جهل، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه، ما أجابك أبداً.

كم كنت واهماً، عندما حسبت أن زهيراً سيحتاج إلى الكثير من أمثال تلك العبارة قبل أن يقول: فماذا أصنع، وإنما أنا رجل واحد! والله، لو كان معي آخر لنقضتها.

وقدمت إليه الآخر.. أنا.

ولم يسألني أبداً عن غايتي من ذلك.. ولو أنه فعل لآلمني، وللمته.. لكنني، وفي غمرة إحساسي بنشوة النجاح، لم أنس ضرورة التوثق، وحسن الإعداد.

وعرضت عليه أن نشرك ثالثاً في أمرنا، فأشار بالمطعم بن عدي؛ لما له من سوابق في نصرة الحق.

ولم يخيب المطعم رجاءنا، لم يحتج إلى أكثر من عبارات قليلة، ملأى بالحماسة، والإيمان بصحة الأمر وصوابه وضرورته: يا بن عدي.. أَرْضِيتَ أن يهلك بطنان من بني عدي بن عبد مناف وأنت شاهد ذلك، موافق عليه؟! أما، والله، لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعاً.

وهكذا أصبحنا ثلاثة، مسلحين بالحق والحماسة والمنطق، والرغبة الجامحة في إتيان الخير ونبد الشر.. ولم يكن الثمن أكثر من الجراءة على حاجز الخوف والوهم الخادع.

ووعدنا المطعم أن يسعى لدى آخرين يشدون أزرنا، وكان اتفاقاً بيننا أن نلتقي صباح غد جميعاً، في خطم الحجون، بأعلى مكة.

* * *

١١ - حزيران - ٦١٩م

لم أتوقع أن يحدث ما حدث بهذه السرعة، وبذلك البساطة..
بالأنياب الندم التي تنهشني، كلما فكرت في أن ما تمّ اليوم كان يمكن أن يتم قبل ذلك بكثير، وأن تلك الخطوة التي ولدتها الجرأة والمبادرة والشجاعة، كانت تستطيع أن تتقدم أكثر من سنتين! كم هو هائل الفرق بين التردد والحزم! فرق لا يدركه إلا من أتاحت له الأيام المرور بمثل تجربتي.

لم يتسنّ لي أمس كتابة مذكراتي، فقد أويت إلى مضجعي عند الفجر، وكان علي أن أخذ قسطاً من الراحة؛ لمواصلة ما كنا قد بدأناه. والآن سأشرع في تدوين أحداث أجمل أيام عمري وأحفلها...

عندما توجهت إلى خطم الحجون، كان يخيل إلي أنني سأمكث طويلاً في انتظار زهير والمطعم، ومن قد يكون معهما، فقد غادرت فراشي، والغسق لا يزال يلفّ طرقات مكة. ولما شارفت المتعد لاحت لي عن بعد أشباح رجال ثلاثة. وعاجلني شعور بالامتعاض، فلم يرقني أن يرانا أحد مجتمعين قبل تنفيذ ما عزمنا عليه، وهجس في نفسي أن أعود من حيث أتيت، لولا أن رأيت الرجال الثلاثة يتجهون إلي، وكأنهم يرونني. وسرعان ما اكتشفت أنهم المطعم وأبو البخري وزمعة بن الأسود، ثم لم يلبث زهير أن وافانا.

لم يطل الحديث بنا، فقد كانت الكلمات معدودات، لم تتعدَّ الاتفاق على وجوب المجاهرة بنقض الصحيفة، وإعلان ذلك على الملأ.. كان كل منا مؤقتاً أن الكثيرين ينتظرون صاحب الخطوة الأولى؛ ليكونوا على آثاره. وقررنا أن نباكر الحرم غداً.. ولما كان زهير حديث عهد بمواجهة أبي جهل، فقد اتفقنا على أن يبدأ هو الإعلان عن نقض الصحيفة.

مضت سحابة ذلك النهار، والهواجس تأخذ بي كل مأخذ.. كنت شديد الاضطراب والانفعال، فلم أسغ طعاماً ولا شراباً، ولم أصب من النوم إلا غفوات قصيرة متقطعة، وكانت تأخذني خفة، وكأنما يطير بي جناحان لا أراهما.

كان موعدنا الصبح في البيت العتيق. ولما وصلت الحرم، بصرت بأبي جهل وأبي لهب في مجلسهما، بعد أن طافا بالبيت كعادتهما.. ورأيت زهيراً على بعد يطوف جاداً. وكان الناس بين طائف وجالس ومضطجع.. وجعلت أجول بعيني في أرجاء المكان، باحثاً عن المطعم وصاحبيه، فألفيتهم قد توزعوا في أرجاء البيت، كما تقتضي الخطة، فقد رأينا أن تبرز أصواتنا تبعاً، من أماكن متفرقة؛ لتبدو على غير اتفاق.

وعلى الرغم من أنني كنت أتوقع أن يرتفع صوت زهير في كل لحظة، فقد أجملت حين دوى نداؤه، حيث بدا لي كقصفة رعد أخدمت لغط الناس:

يا أهل مكة...

واستحال اللغط إلى غمغمة لم تلبث أن أفضت إلى سكون.. واشترأبت الأعناق، وتطلعت العيون، تستكنه النداء الهادر: يا أهل مكة...

كان صوت زهير ثابتاً قوياً واثقاً، أسر الأسماع: يا أهل مكة.. أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم؟!

وعلت غمغمة، وتلفت الناس لتواجه العيون بعضها بعضاً، أو كأنما لتبصر بعد عمى أعوام ثلاثة... وعاجلهم زهير كالتضاء المبرم، مصعداً الموقف مباشرة إلى نقطة الذروة؛ ليستغل الذهول الذي أحدثته الضربة المباغتة: واللّه.. لا أقعد حتى تشقّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

هب أبو جهل مغضباً محتاجاً، منتفخاً كيداً، مستطيراً شراً: كذبت، واللّه، لا تشق.

واختلط صوتي بصوت زمعة بن الأسود، وهو يشقّ طريقه بين الناس إلى حيث أبي جهل، ويلوح بيده صارخاً في وجهه: أنت واللّه أكذب، وما رضينا بها حين كتبت.

وصحت من مكاني: وما رضى إلا قليلون، لكنكم استخدمتم نفوذكم؛ لترغموا الناس على مظاهرتكم.

وتابع أبو البختري: صدق زمعة، وصدقت، لا نرضى ما كتب فيها. أضاف المطعم بلهجة جازمة، كمن يصدق أمراً قد أبرم: صدقتكم جميعاً، وكذب من قال غير ذلك...

واستشاط أبو جهل غضباً، لكنه كان غضب المفلس الخزيان، فقد اتجه الناس إلا أقلهم إلى حيث انطلقت الأصوات، وانضمت التجمعات بعضها إلى بعض، مشكلة سيلاً يتدفق في اتجاه واحد...

تبدّد صوت أبي جهل، في خضم الأصوات.. وبصعوبة كبيرة أفلحت في التقاط كلماته، التي راحت شرذمة ممن حوله يهزون رؤوسهم موافقين على وقعها: هذا أمر قضي ليليل وأبو طالب بناحية المسجد... وطويت صفحة أبي لهب وأبي جهل، وانطفأ الصوتان ببساطة كالمعجزة.. استطعت، بعد عناء، الوصول إلى زهير.. تعانقنا، وهممت أن أقول له:

أنا ماضٍ إلى تلك الصحيفة الملعونة؛ لأمزقها.. عندما علت جلبة الناس، واندفع المطعم يجتذب الصحيفة عن الستار المغبر، ويفض غلافها وسط الجموع المهللة.. ويمزقها...

* * *

١٢ - حزيران - ٦١٩ م

لم أستطع الاجتماع بأصحابي الأربعة بعد، فقد ألهمت الفرحة الناس عن كل شيء، وراحت الصفقات المبدئية تعقد في البيت، وأكوام الطعام والثياب تحمل إلى أبيات آل هاشم، وآل عبد المطلب، وتقاطرت النعميات بلا وني، فأبرم أكثر من زواج في ساعات ذلك اليوم الحافل الذي لا ينسى.

عندما استيقظت هذا الفجر، كانت نشوة حلم مرّبي، أو مررت به، في سويغات الليل، لا تزال تحمل إلى أطرافي وروحي خدرًا لذيذًا.. تحسست يدي الخشتين، وابتسمت.. كيف أمكن أن تكون هاتان اليدان يدي امرأة! امرأة تأتي بعدي بألف وثلاث مئة وواحد وثمانين عامًا؟! امرأة تلبسني وتحتويني.. تعيرني يدها ولسانها، لأكتب لقوم لا أعرفهم، في زمن لا أعرفه، ما دار هنا ذات يوم.

امرأة! هل تتغير في ذلك الزمن النساء؟!

فتاة من كوسوفو

رأيت صورتها في معرض للتصوير الضوئي، شقراء لطيفة
القسمات، ذات سنوات عشر، وحجاب سماوي صغير، هو السبب في
كل المآسي التي تحتزنها نظراتها الطفلة.. غصت في بحار عينيها
الرمادية الساجية.. كانتا تشفان عن كنوز من الحكايا.. وقفت أمام
حزنهما الأبكم بإجلال وخجل.. فأحزان الأطفال تلجمني.. تملؤني
مرارة ووجومًا.. تدفع بي إلى الهرب من عجزي ومسؤوليتي عن كل ما
هو جميل وفاضل وطيب في هذا الكون.

خيّم المساء.. وفي المساء أحسّ بخوف يشلني.. الحشر الكئيب،
وجدران الخيمة الرمادية ذات الشرائط الزرق، وعلب الأطعمة
المنضدة في الزاوية، وصرة ملابسنا التي يضطجع فوقها أخي
الرضيع، والمصباح الأسطواني المعلق، ووجه جدتي، الذي لم أعد
أذكر كيف كان بلا دموع، وصور حزينة من كوسوفو.. أتمسك بها برغم
ما تبعته في من ألم.

أبي الذي لوّح لي وهو يخرج من باب الحديقة راکضًا، بقميصه
الأصفر ذي الكمين القصيرين، ورشاشه المشهور، ولم أره بعدها قط.
وأمي.. ويغوص في صدري شيء كالسكين.. أحقًا لم تعد هناك من
أدعوها: ماما!

وأنتفض مذعورة: لا.. إنها هناك.. بطريقة ما ستكون هناك، في بيتنا.. تكوي سراويل أبي قرب النافذة.. تقلّي البطاطا في المطبخ، وأنا أقف وراءها بصحني، فتضع فيه بعض الأصابع، وأنفخ فيها لتبرد، فأكلها.. إنها هناك تفتح الستائر عند الصباح، وتحنّي فوق سريري تقبلني، وتقول: حبيبتي.. هيا.. وقت المدرسة.. لم لا تكون الآن أمام الباب تنتظرني حاملة محمداً، وطعام الغداء في أوانيّه ينتظر على المائدة!

لكنها ماتت.. هي الآن ملقاة في مكان ما، شعناء معفرة ملطخة بالدماء.. ولا تستطيع أن تجيبني إذا ناديتها...

وأهتف، والدموع تخنقني: أمي.. ماما.. ماما...

وأحس ذراعين تحتضنان جسدي.. دافئتين، حنونين، لكنهما ليستا ذراعيها، أستسلم لذات الذراعين الحنونين، وأسمع صوتها من فوق رأسي: الخنازير.. التجسّون.. يريدون إبادتنا...

وأظل أبكي بإصرار؛ لأتشاغل عن تلك الكلمة الرهيبة.. وجدتني تبكي.. وجاراتنا في الخيمة يبكين. بينما يغادر بعض الرجال وهم يشيحون بوجوههم؛ كيلا تفضحهم تعايرها.

وينطلق صوت المذيع الصغير، الغارات تتوالى على كوسوفو.. ويضيف المذيع كلاماً آخر، يضع في موجة من لفظ غاضب، وتصيح امرأة من بعيد: يا ويلي! لم يبقَ في المدينة شيء...

يسقط في صدري شيء ثقيل حاد.. بيتنا.. خزانتي.. بنياتي الأثيرات: الشقراء التي انفصل رأسها، فثبته أبي بالغراء.. والرضيع

الأصلع ذو الأطراف المرتخية والعينين المغمضتين.. وقطار محمد الذي أخبئه عندي ريثما يكبر.. والدب ذو الدراجة...

فجأة، وكما تهب الريح في الليل، يقتحم الخيمة شاب يحمل رشاشاً.. نتراجع مذعورين، فيصيح مهتاجاً متقطع الأنفاس: إلى الدغل.. إلى الدغل.. بسرعة.. احتموا بالأشجار.. وتعمّ الفوضى.. تهب جدتي ممتعة متعثرة بثوبها.. تتحني بجسدها النحيل لتخطف محمداً الذي أيقظه الصراخ.. تحكم غطاء رأسها، وتناولني بطانية صغيرة، تلقي بها، كيفما اتفق، بين ذراعي، فأجهد لإحاطتها بذراعي، ثم أضمها إلى صدري، مشرّبة برأسي من فوقها؛ لأتبين طريقي، ثم أهرول بين الجموع لاحقة بجدتي...

أقدام متصادمة متعثرة تدوس قدمي من الخلف.. تتخلع فردة من حذائي، فأفقد توازني، وأقع أرضاً، ثم أنهض ذاهلة عن البطانية، وأعيد حذائي إلى قدمي بعد محاولات عديدة أحبطها الدفاع والاضطراب.. وأتفقد جدتي، فأراها على مسافة قصيرة متوقفة تبحث عني بعينيها، وهي تشد محمداً الباكي إلى صدرها.. ألحق بها، فتهتف مستنكرة: أين البطانية؟!

وألتفت إلى الوراء مذعورة: .. وقعت.. وتصفعني بثورة بأسسة، ثم تضيف متوجعة مشفقة: يا غبية.. ستموتين من البرد.. وتركني وأنا أبكي، وتتكص عائدة أدراجها، وسط الجموع المندفعة إلى الدغل.. وأراها من خلال دموع القهر والشقاء في عيني، وهي تتحني لتلتقط البطانية، وتتفضها من الغبار بيد واحدة كليله، ثم تحتضنها مع أخي، وتعود إلي، وقد اختفى كل أثر للثورة من عينيها.

عندما استيقظت كان ظهري مثلجاً، وثمة ألم في كل شبر من جسدي. لقد أمضينا الليل في الغابة، على جذع ضخّم مستلق. كانت جدتي تغفو مسندة ظهرها إلى أصل شجرة عتيقة، وقد فغرت فاهاً، ولفاعها الصوفي الأبيض يحيط برأسها وعنقها وكتفيتها.. وفي حجرها ما زال محمد يغفو.. أما أنا فكنت جالسة بجوارها، وقد ملت برأسي إلى فخذها، والبطانية تحتضنا جميعاً.

كان أحدهم يصنع الشاي في برميل نظيف، فوق حجارة تبرز من بينها أغصان جافة، تلتهمها النار. وكانت هناك سيدة تحمل كيساً من النايلون ملآن خبزاً، وأخرى تحمل كيساً ملآن أكواباً من الورق المقوى، عليها صليب أحمر، فوق أحرف زرق. ونسجت هذه المشاهد حلماً صغيراً.. وحركت شعوراً بالجوع لم أكن أفطن إليه.. سأتناول شاياً ساخناً.. وأحسست بشيء من الراحة...

كوب الشاي الورقي، لا يكاد يحجب حرارة السائل القاتم عن راحتي، فأتجلد لها، وأركز عقب الكوب على ركبتي العارية، لكنه يلسعها، فأسرع برفعه من جديد، وأظل أنقله بين كفي الباردتين، حتى بت أطيق إبقاءه في يميني، كما اعتدت أن أفعل، عند ذلك فرغت لجدي، ورحت أراقبها تلقي بقطع الخبز الصغيرة في كوبها، ثم تلتقطها بإصبعيها بخفة، وتنفخ فيها، ثم تدسها في فم محمد فيلتهمها بنهم.. وكان سعيداً، يضحك ويرفس برجليه، حتى خشيت جدتي أن يندلق الشاي عليهما، فتبرعت بالإمساك بكوبها، حتى تفرغ من إطعام الصغير.

حملت الكوبين الورقيين لإلقائهما في برميل غير بعيد، خصصوه لجمع القمامة، فاعترضني صبي في سترّة بنية متهدلة، كأنما قد نام

وهو يلبسها، كما تقول أمي، ونظرت إلى ثوبي المغضن، ورحت أمسه
براحتي.. لاح لي وجه أمي الذي يعذبني، وتجمد كل ما في، وضرب
ركبتي جسم صلب، حتى كدت أجلس في مكاني.. في هذه اللحظة
واجهني الصبي، كان يبتسم، وقد حاذى وجهه قرن طويل من أكواب
الشيء المستعملة.. نظر إلي، ثم قال بتردد، مشيراً بعينه إلى كوبي: لا
تلقى بهما.. نصنع منهما أشياء جميلة...

مددت يدي بالكوبين إلى الصبي، فنظر إليهما، ثم إلي، وقال:
اغسليهما أولاً، ثم تعالي أعلمك.. وجلس حيث هو متربعا فوق العشب..
ظللت واقفة وقد ساورني شيء من الامتعاض، وقلت: إن أعجبني ما
تصنع غسلتهما، ثم صنعت مثله.

نزع قبعته وألبسها ركبته، ثم وضع أكوابه أمامه، وانحنى على واحد
منها، يشقق حافته بأصابعه شقوقاً متساوية الأبعاد متساوية الأطوال
ما استطاع.. ورحت أرقبه بفضول، وهو يلوي الحواف المهدبة، مدخلاً
الأهداب على التوالي في الشقوق.. وفي لحظة صم الأذان أزيز مروع،
ودوى انفجار هائل.. وتبعثر كل شيء.. وانسكب على الحرش كله لون
أسود.. أخضر.. وملاً الفراغ كله فجيح متطاوّل.. لا شيء.. لا شيء..
لا شيء...

تسلل الضوء من بين جفني الحارقين الشائكين.. وأحسست كأن
فوقي ثقلاً يقيدني بقوة، ويمنعني من الحركة.. كوبي.. أين كوبي
الورقيان؟.. أين الصبي؟ قال: إنه سيعلمني كيف أصنع شيئاً جميلاً..
أين أنا.. فتحت عيني مستطلعة.. الأحداث تستفيق متناقلة.. الحرش،

وجدتي، ومحمد الجميل يرفس ويضحك، والصبي ذو الأكواب يشرع في الجلوس بأكواب الورق المتداخلة.. والانفجار الفظيع...

وانتابني الذعر.. ووجدتني عاجزة عن الصراخ أو الحركة.. رحت أنتحب باستسلام وعجز.. أخذتهم موجة القذائف.. الموت.. فجأة صرت أعرفه أكثر من كل شيء.. لا بديل من الهرب، بأي طريقة كانت سأهرب.. الآن سأهرب.. لا أريد البقاء هنا ولا هناك، ولا في مكان يعرفه الموت، أو أعرفه أنا...

أحسست بيد مضطربة حنون فوق جبينني، كان وجهها لا أعرفه.. شاباً في لباس أبيض.. أردته أن يكون الصبي، فلم أنظر إلى وجهه، بل رحت أتفقد قرن الأكواب في يده.. وأستعيد مناظر أصابعه البارعة وهي تشقق الحواف وتلوّوها. و... انحنى الشاب مقرباً وجهه من وجهي، وابتسم قائلاً: سيأتي والداك الآن...

والداي!

عرفت أنه يكذب علي.. عرفت أنني.. ضائعة، جريحة، وحيدة.. أغمضت عيني، ورحت أغوص إلى عالم حار ضاغط مظلم، لا جدران ولا أرض ولا سماء له...

لم يكن في وسعه أن يفعل شيئاً.. فراح يمسح دموعي بأصابعه العارية المثججة العاجزة...



البشارة

تلازمني، كالقليل مما يعلق بالذاكرة لسبب غالباً ما نجهله، عبارة
الشيخة ربّوع: «هذه البنت ستكون تقية»!

عبارة الشيخة ربّوع، هذه، رافقتني دون ضجر أو ملل، في دروب
العمر المتشعبة، وأنا أنوء بعبء قلب لا حدود لمغامراته، ولا آفاق
لمراماته، وذهن متشظّ، رمى بي كل مرمى، حتى بت أردد بتأمل:

مَنْ كُلِّ مَا نَالَ الْفَتَى قَدْ نَلَتْهُ

فكانت تتمثل لي في أقصى حالات الصفاء والتسامي التي يمنّ
الله بها على من يشاء من عباده، كما تتمثل لي في أقصى حالات
الاهتصار وزلزلة الروح المعذبة بما يحيط بها من دناءات البشر
وقسوة الواقع...

كنت أحتضنها منيية أو معجبة، أو أواجهها ساخرة متهكمة. لكنها
كانت هناك، في نقطة ثابتة من قاعدة الذاكرة والوجدان، لا يتغشاها
الظلام، ولا يطمس معالمها الظلام. وما أزال إلى يومي هذا أعجب
من تلك الظروف التي اجتمعت، فنقشت تلك العبارة في ذلك الموضع
مني، وما أزال لا أجد لثباتها ذاك مبرراً مقنعاً، إلا أن تكون من ذلك
الكلم الطيب الثابت الأصل في الأرض، الباسق الفرع في السماء، يؤتي
أكله كل حين بإذن ربه.

كنت في السابعة من عمري عندما استولى علي شعور بأنني أرى، وأسمع بكل خلية من جسدي.. فقد وجدتني مزودة بعينين مفتوحتين، وأذنين سماعتين، وقدر من الحيوية كثيراً ما قصر الجسد والظروف عن مجاراته، حتى غدوت مثار شكوى لكل من حولي.. وما أزال أذكر كيف كنت أعجب من أنني دائمة الكلام.. حتى كنت عندما أمتثل للأوامر فأطبق شفتي، كان يخيل إلي أنني أتكلم في داخلي...

أفلقني ذلك بعض الشيء، وربما أخافني، وسألت لداتي، فلم أجد إجابة أشفى من: نحن نتكلم مع الآخرين فقط، وإذا لم يكن ثمة أحد صمتنا...

ولم تكن تلك الإجابة ما أريد، ولذلك لجأت إلى أبي، وكان المرجع الأعلى بالنسبة إلي، فكان جوابه: إنها الروح.. تفكر دائماً.. إنها النفس الأمارة بالسوء...

وعندما استوضحته معنى الأمارة بالسوء، أدركت أنه، هو الآخر، لم يفهم مرادي. فالحديث المستمر الذي يقلقني لم يكن سيئاً دائماً.. إنه كالحديث العادي، وأنا بنت طيبة، أكثر أحاديثي لا تمت إلى السوء الذي ذكره والدي بصلة...

لم يضايقني كثيراً عدم الحصول على إجابة شافية، ولم أعد للبحث عنها، بل رحت أتسلى بأحاديثي الداخلية، وأعجب من قدرتها على الاستمرار والتواصل حين يتعب لساني، ويكل جسمي، بعد نهار طويل من الحركة الدائبة، ولا سيما في نهارات الصيف الطويلة المرهقة.

كنا قد اعتدنا قضاء بعض الصيف في بلدة (الباب) القريبة من (حلب)، حيث أحوال أبي الطيبون، يرحبون بأبناء أختهم التي كان قد اختطفها الموت في ريعان الشباب. وكنا - نحن الأحفاد - في موضع الصدارة من ذلك الترحاب والتدليل والإكرام.

كان أحب أوقات النهار إلى قلبي، في تلك الزيارات الصيفية، وقت الغروب، حيث تقوم النسوة بغسل أرضية الدار المفروشة بالإسفلت الرصاصي الصقيل، ويفرشنها بالحصر (البابية) المشهورة، والوسائد المحشوة بالصوف بسخاء.

وكانت أمي -رحمها الله- في ذلك الوقت تمتح الماء من بئر الدار دلوًا إثر دلو؛ لغسل بعناية وجوهنا وأيدينا وأرجلنا، وقد يتطور ذلك إلى حمام كامل بالماء البارد، تتخلله احتجاجاتنا وتويخاتها، بسبب كمية الأوساخ العالقة بأجسادنا الصغيرة. وكانت تلك المعارك اليومية الطريفة تنتهي بجلسة هائلة على الحصير في ثياب نظيفة، ونشوة صمت ما بعد التعب.

وبينما تتضوع رائحة الطعام اللذيذ الذي يكتمل نضجه استعدادًا للعشاء، ينطلق من المذياع الضخم، الجاثم بمهابة فوق إفريز الشباك العريض، صوت «المقرئ الشيخ عبد الباسط محمد عبد الصمد»، كما كان يفرض علينا أن نقول، مجلجلاً يتلو قرآن المساء. بينما هذه الأمور تجري، تحت رقابة الشمس المتتأبة، التي تسحب ملأءة النور عن أعالي الجدران شيئاً فشيئاً، لتلتحفها استعداداً للنوم، كما كان يحلو لي أن أتصور، بينما كل ذلك يحدث يتهالك جسمي، ويثقل جفناي،

وينطلق الحديث الداخلي طافياً تارة، وغائضاً أخرى، في تضاعيف أمواج صوت «المقرئ الشيخ عبد الباسط محمد عبد الصمد» وعبارات النسوة المقتضبة، المسروقة في الزمن الفاصل بين الآيات، عن الطعام الذي قد يكون نضج، وهدوء الأولاد الذي يخشين أن تحسده أعينهن، ووجوب تفقد القمح المسلوق المفروش على السطح...

كثيراً ما كانت أحاديثي الداخلية المتوثبة تدور حول ما يقرؤه «المقرئ الشيخ عبد الباسط محمد عبد الصمد»، وكنت أفهم ما أفهم بطريقتي الخاصة، بعد أن يؤت من تفسيرات الكبار، أو لم تعجبني، أو لم ترض خيالي، حتى قررت بشكل جازم عدم الاستماع إليها، وذلك عندما قال «خالو الشيخ طيب»، كما كنا ندعوه: إن الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر التي سجدت ليوسف هي إخوته وأبواه.

كان خيالي يجد متعة في تصور الكواكب والشمس والقمر وهي تتحنن لذلك الصديق الجميل. فأنا، وإن كنت لم أتوصل إلى تصور حسي مقبول لكيفية سجود هذه الأجرام، فلسان حالي يقول: ولم لا .. ! أو لا يستحق ذلك؟ ثم .. كيف يسجد الأبوان لابنهما؟

في مثل هذا الوقت من كل يوم كانت الشبيخة ربوع تأتي، ولم تسترع انتباهي قط، على الرغم من حديث الجميع عن تقاها وورعها، وكرامات أبيها الذي لا تحرقه النار، ولا يخرق جسده الرصاص! كانت مثل كثيرات أراهن، عجوزاً ضئيلة، تلتحف السواد، وتسير متوكئة على عصا معوجة جافة.. كانوا كثيراً ما يدعونني إلى تقبيل يدها، أو يدعونها إلى قراءة آيات من القرآن على رأسي؛ عسى أن يعمل ذلك على تهدئتي والتخفيف من عرامي الصبياني، الذي يضيقون به.

وذات غروب، كنت في جلستي الممتعة المعتادة، وقد استندت بظهري إلى وسادة قاسية، ومددت ساقي المتعبتين، وثبت عيني على قطيطة بيضاء شريفة، تجثم فوق الجدار المواجه، كان قد قيل لي: إنها الوحيدة الباقية من ست قطيطات ولدتها أمها تحت درج السطح، ثم التهمتها واحدة إثر أخرى!! وكنت، بعد مضي أيام طويلة، قد تخلصت من حالة الاشمئزاز والفرع المروعة، التي كانت تتنابني، كلما وقع بصري على هذه القطيطة. والحق أنني لم أكن أنظر إلى القطيطة تمامًا في ذلك الغروب، كنت فقط أتخذها موقعاً أثبت بصري عليه، إذ كانت أمور كثيرة أخرى تشغلني.

فثمة اليوم، إلى جانب الطعام اللذيذ، خبز شهى، يخرج الآن من التنور كعكات طازجة سمراء، تفوح منها رائحة القمح والنخالة الذكية، وما كان الوقوف أمام التنور، كعادتي، ليفوتني، لولا ذلك الألم البغيض الذي يصلّ له عظم ساقي المجهدين بجريي طوال النهار في الأزقة القريبة الظليلة والمشمسة، والتنقل بين دور الأقارب المتلاصقة، للعب حيث أجد أولاداً.

وكان إلى ذلك أيضاً «المقرئ الشيخ عبد الباسط محمد عبد الصمد»، الذي كان قد قرأ لتوه بصوته الرخيم المنغم: ﴿وَأَيُّهَا إِذَا يَسَّرَ﴾ وكنت لحظتُ أحاول تصور السريان مقارنة بزحف الأفعى.. فقد كنت، مذ ولدت، بنتاً للطبيعة، عشت خمس السنوات الأولى من عمري في مزرعة عتيقة معمرة الشجر والأسيجة والمساكب، تعرفت فيها أسرار الطبيعة، نباتاتها وحيواناتها وحشراتنا، فأغنت معلوماتي، ورسمت خطوط خيالي...

كانت صورة الليل الذي يسري تستغرقني.. كان سواداً شفافاً كملاء هفهافة، موشاة بالنجوم، تسحب في السماء رويداً، تحف بها أنغام النسيم المنعشة، التي تدغدغ سكينة الليل وسجوه.. وبينما أنا في ركاب ذلك الساري الساحر، الذي امتلك علي مشاعري، انطلق صوت الشيخة ربّوع من مكان قريب، من مجلسها على الحصر نفسه: هذه البنت ستكون تقيّة.

انترعتني العبارة من عالم أحبه. ولكنني، لسبب ما، لم أمتعض. وعندما حولت بصري إليها، أدركت أنها كانت تتأملني في شرودي.. ولا أدري ما الذي أوحى إلي أنها كانت تفعل ذلك منذ وقت طويل.. كما لا أذكر تماماً لماذا استخفني الفرح لهذه الشهادة، لعله موقف أُمي، التي رمقتني باعتزاز مكتوم لم يخف علي، بل ذكرني بما لا تفتأ تقوله لي في لحظات الصفاء: أنت طيبة، فلماذا تتشاقين، وتسببين لي المتاعب؟!

ولم أستطع قط إجابة ذلك السؤال، ولكنني في كل مرة، كنت أعتزم الالتزام بما يرضيها، ثم أجدني أعيد الكرة، لسبب أو لآخر، كأن أنسى أو..!

لقد مرت سنون طويلة على تلك العشيّة، التي خلدها كلمات الشيخة ربّوع -رحمها الله- فإنني ما زلت وسأبقى، إن شاء الله، أنقذ دالة تلك العبارة، وأتعهد معناها الموحى والملم في الوجدان والواقع، وأستحضر ظلالها التي امتدت سخية مباركة على واحات الأيام وصحاريها، دون كلل كلما نادتنى بارقة توسمت فيها خيراً في طفل، تتيح لي الظروف لقاءه أو حوار، وكلما اقتضى حال من أحوال هذه الدنيا كلمة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء.. تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

قائيل يلحق بهابيل

واجه الشمس ثانية.. كانت تعلو في الأفق البعيد.. نظر إليها بلا
مبالاة، ثم بحسرة.. كانت تمنحه الارتياح.. كانت تملؤه نشاطاً...

التفت إلى الجثة المرمية هناك.. الريح تحمل إليه رائحتها التي
غدت كريهة.. وعأوده الألم البغيض.. لا مهرب من المزيد من الألم..
يداه هاتان صنعتا ذلك الألم.. وحول عينيه عن يديه المتصلبتين.

- لو أن هابيل لم يعتد علي.. كم كان قاسياً! ...

وأحس بإرهاق شديد.

- وهو الآن أشد قسوة ...

واستشعر شيئاً كالسهم الناري يشق صدره.. لو أنه يضمن أن أخاه
المشلول الأبكم ذاك لا يسمع، إذا لصرخ ملتاناً معلناً ألمه...

نهض، واقترب من الجثة.. ليس هذا هابيل الذي يعرف.. ودار حوله
باحتراس، فقد توقظه حركته، ويعود إلى لعب ذلك الدور البغيض..
وبلهفة هتف: فليعد...

واستدرك: على أن يظل بلا حراك...

ليت هذا يحدث، وسيحمله على عاتقه دائماً...

الوجه كما كان بالأمس.. بل لقد ازداد سوءاً.. الجثة كلها، هاويل كله يزداد سوءاً.. والحق أنه لم يبقَ ثمة هاويل.. وتلفت حوله مذعوراً.. وعاد يجثو إلى جوار أخيه المسجى بلا حراك، مدّ يده يلمسه.. إنه بارد كالأرض...

ماذا يفعل الآن؟ ما المخرج من تلك الحالة البائسة؟ كيف صار هاويل هكذا؟ لقد أراد أن يكف أذاه فقط.. أراد أن يجعله بلا حراك فقط.. يجب ألا يبقى هكذا.. يجب أن يعود كما كان.. لا.. ليس كما كان.. فقط يجب أن يتحرك، ويكلمه.. ولكنه لا يفعل.. هل كانت ضربته أقسى مما أراد.. ما كان بالإمكان أن تكون أقل قسوة، فهاويل قوي، ولا بد من ضربة قوية للتأثير فيه.. كان الأقوى في كل شيء، حتى إن قرابينه كانت تقبل دون قرابيني.. كان يدعي دائماً أنه الأفضل.. وأحس قابيل لحظة قصيرة بالغضب.. وتملل، وقد تملكه ذلك الحقد المر والتمرد الأعمى اللذان يعرفهما.. لم أعد أستطيع احتماله.. لم أعد..

وسكن الغضب فجأة وهو ينظر إلى الجثة الهامدة.. ولكن ما كان يجب أن أكون بهذا العنف وهذه القسوة.. وفار شيء كالنار في رأسه، وهب يذرع التل مهتاجاً، ثم اندفع إلى عمق الكهف، حيث أطلق لصوته ودموعه العنان.. هكذا كان يفعل دائماً هو وهاويل، عندما ينفور شيء في رأس أي منهما.. وارتفع نسيجه حتى أربعه الصدى المدوي، في الكهف الرطب الموحش.

فقد رغبته أو قدرته على رفع صوته بالبكاء، فخرج إلى جثة هاويل.. كانت الشمس قد امتدت فوقها...

- هل يستيقظ الآن! كانت الشمس توقظه.. ليته تفعل الآن...

انحنى، وقلب الجثة برفق ورعب.. عيناه مفتوحتان، والشمس تنسكب فيهما.. لكنهما ليستا عينا هابيل اللتين يعرف... وتمتم: كم كانتا براقيتين صافيتين جميلتين.. كله كان جميلاً.. وقوياً.. أجل، قالها وهو يمعن النظر في عيني أخيه، كأنه يختبر سكونه الأبدي المخيف، وأضاف: وكان قادراً، يجد المخرج من كل الشدائد.. النار، الفيضانات، الحرائق، الوحوش.. كان أبرع وأقوى مني.. وخفض صوته بالعبارة الأخيرة، فهو لم يصدق بعد أن هابيل لن ينتصب في أي لحظة كانت ليعود كما كان.

وشمله الذعر.. لو أنه نهض الآن لسامني سوء العذاب.. وساوره شيء من الأمن المر.. لكن نظرة إلى الجثة الهامدة أعادت إليه الخوف والغم...

- كان يمكن أن أحتمله قبل أن أفعل به ما فعلت، أما الآن ... !

ومثلت به هواجسه، احتار أي الوضعين أفضل: أن يعود هابيل إلى سابق عهده فينتقم منه، أم يبقى هكذا فينجو هو من الانتقام، ويفقد أخاه! كلا.. الأمران لا يطبقهما. واكتشف أن ما كانت عليه الأمور قبل فعلته تلك كان الأفضل، على الرغم من كل ما كان فيه. وأدرك مفجوعاً أن ما كان لن يعود، وغلبه الخوف من أخيه ومن فعلته.. ما العمل الآن؟ لا بد أن يبقى هابيل هكذا.. ولكنه لا يقوى على احتمال الألم الذي تسببه له حالته.. أي دوامة تلك التي وضع نفسه فيها! أي ألم قاتل ذاك الذي تجرعه إياه يدام!

وانتصب ضارباً رأسه بكلتا يديه: أيها الرأس القذر، يا من دفعتني إلى فعل ما فعلت، لن تحل أبداً محل هايل.. لن تستطيع ذلك.. لو كنت قادراً على تقديم الخير إلي لما جعلتني أفعل ما فعلت.. وتلفت حوله، كانت السفوح البعيدة المبتورة القمم تتوالى بوحشة، مقبضة إلى ما لا نهاية، والغابات الداكنة عن يمينه تتغلق على الأخطار التي ترعد الفرائص، وتغرس في النفس الوحدة والضياع...

وفجأة انطلقت من ورائه أصوات منكرة جمدت الدماء في عروقه.. كانوا يزحفون صاعدين إليه.. النمر الحديدية المتوحشة، والضباع القذرة الجوعى، والأفاعي اللثيمة الرمادية الرهيبة...

ولم يكن أمامه ما يفعله.. لا مهرب، لا منجى.. واندفع، كما كان يفعل أمام كل خطر، نحو هايل، ركض إليه بكل قوة بساقيه المرعوبتين.. الآن سينهض هايل.. كما في كل مرة، لا يمكن أن يتخلى عنه...

انهض يا هايل... أخ...

ذبحته الكلمة قبل أن يتمها، ولكنه كان قد نسي كل الكلمات ما عداها، ومد صوته بنداء معول لم يسمعه سواه: أخيب...

وارتمى على الجثة الهامدة يحتمي بصدى ذكرى تلفظ آخر أنفاسها.. ونظر إلى الأعداء يقتربون أكثر عدداً وأثبت خطأ.. وحمم متوسلاً يائساً: سيدركوننا.. وهزه بعنف، متوسلاً: هايل.. انهض.. ماذا أفعل يا هايل؟

ولم يجب هايل...

انتصب قاييل مستطار اللب، ونقل بصره كالبرق بين الخطر
 الزاحف كالموج العاتي، وجثة أخيه... وكمن يغرز خنجرًا في صدره،
 ويشهق شهقته الأخيرة، ركل الجثة مذعورًا، فتدحرجت باتجاه الوحوش
 الزاحفة. وأطلق ساقيه للريح، وهو يمسك برأسه مولولاً في جنون..
 هايبيل.. هايبيل ...

عدت الوحوش على جثة هايبيل، وتلذذت بتمزيقها، وتوزعتها
 مطمئنة، إذ لا حاجة بها إلى الاستعجال، فهي لن تتجشم عناء
 المطاردة والقتل، فالآخر لن يهرب؛ لأن جثته مرمية على بعد يسير
 بلا حراك ...

«لقد قتل قاييل هايبيل، أما قاييل فقد قتله الندم».



obeikandi.com

الشاعر والشمس والقلم

عبر الواجهة الزجاجية الواسعة، بدأت عيناه رحلتها الصباحية المعتادة، إلى الأفق المشعشع بأول خيوط النور، وهو يردد من أقاصي الروح التي يمنحها قرآن الفجر الخاشع القوة لمواجهة أعباء يوم جديد: اللهم، أنت السلام، ومنك السلام، تعاليت يا ذا الجلال والإكرام ...

نهض خفيفاً، وفتح النافذة.. عبّ في نفس عميق شاكر مستسلم وقوي عبير الصباح الذي يعيش.. هذا النفس يشعره أنه يمتلك كل ما يحب.. يمتلك روعة انبعاث الحياة، التي يتوفاها بارئها، ثم يطلقها مع شمس كل صباح حية متجددة، في صورة، تهزه حتى النخاع، عن ذلك اليوم الذي لا ريب فيه حقاً وصدقاً، وكما يرى ويسمع ويعي كلما أشرقت شمس يوم جديد. ويمتلك النسيم الآتي من بعيد.. من حيث لا يدري.. من الصدور الفرحة والحزينة، من الشجر في السهوب والسفوح والوديان، من المحار في ظلمات البحر، من العصافير التي تغدو خماصاً وتروح بطاناً، من خفق أشرعة السفن العائدة والمسافرة. ويمتلك النور الوليد النقي الواعد بالعطاء والحياة.

الفوضى الشاعرية اللطيفة تضيء ألفة على الغرفة، والقهوة لا تزال تنتظر الرشفة الأولى، والقلم يبدأ، بين أصابعه المرهفة، مقدمة مقطوعة هذا الصباح.

راح يبادل رفيق الإحساس غبطة اللقاء، ويروي عطش الروح المبدع إلى لذة المشاركة ونعمى الود، ويسمع ... إنه يسمع حقاً حديث القلم: أحبك.. لن أخذلك أبداً.

يدخلان معاً عالم الروح، يحس دفئه في راحته، أو دفء راحته من حوله، يرفعه إلى خده، يمر به على شفثيه، ويداعب به شعره، فيغمره أمان شهى.. ويرتشف القهوة على ضفاف الأفق.. ثم يعود إليه، فيراه مشوقاً متشوقاً، يتسم له كمن يتسم لحبيب، فيحتضنه بين أصابعه وراحتيه من جديد.. يفور في القلب الإحساس، وتضطرب في الروح الرؤى، وتلهب الشعور والخيال الأحداث والحكايا، وتتصهر الأصابع والقلم، وتشرب الصفحات الأصداء إبداعاً معجز الجمال والكمال.

بهذه الروعة يتماهى قلبه الشاعر والقلم، بهذه الروعة يلجّ خلد الإبداع كل صباح، ليقبس من هناك ومضات كالسحر، يترجمها قلمه الموهوب، أنفاساً ترشفها صدور المتعطشين إلى النقاء، في سجن هذا العالم الملوث.

ترتفع الشمس متلهفة، تنفخ الذين يصنعون الحياة مما أودع الله فيها من أسرار الحياة.. تطوي الأفق إلى شرفته.. تتلبث بانتظار عينيه.. يطول انتظارها، فتلتهم المسافة المتبقية إلى قبة السماء؛ لتكون أقرب إليه، لتسكب بصمت فوق الأرائك، وتعلو بحذر سطح المنضدة، لتتأمل بافتتان أصابعه الملهمة، وهي تحتضن القلم، وترسم معاً على الورق حياة فريدة، يصوغها شاعر مبدع، ويجسدها قلم عاشق.

الاستغراق الذي يسربل المشهد يغريها.. الآن تستطيع أن تمد أناملها فتمس جبينه.. وتتذكر أنها إنما اقتحمت عليه جنته؛ لتذكره

بحاجته إلى الراحة، بعد ساعات طويلة من الانكباب على الصفحات. وتهمّ بمدّ أصابعها الودود إلى جبينه، فتستوقفها تلك المعزوفة الخفية المتناغمة: العينان والورق، والأصابع والقلم، والأنفاس.. وذلك السر الذي يتجسد الآن في سمفونية باهرة، تصنع الجمال للحياة.

راحت تستمع كالمسحورة.. غرقت طويلاً طويلاً.. لكنها لم تستطع تجاوز إرهاقه، وتوجع القلم الخفي بين أصابعه.. لا بد أن تفعل شيئاً لتنتزعه من برزخه ذاك إلى دقائق من الراحة.

تحسست برفق ساعديه الراسيين على سطح المنضدة، سكبت فيهما خيراتها، غمرت أصابعه والورق والقلم.. هذا الإرهاق المقلق، يجب أن يوضع له حد وآتى سعيها أكله.. أغمض عينيّ أمام الوهج الساطع، وانتصب بظهره متمطياً، كمن يستيقظ من نوم طويل، ثم رفع رأسه متثاقلاً، ومال بالمقعد إلى الوراء.

احتضنت وجهه باندفاع أحرق، فرفع كفه يتيقها، دون أن يفارق القلم يمينه.. خجلت، وتوارت بظاهر كفه، فعاد إلى وضعه متمللاً.. ألقى نظرة على كوب الشاي، ثم نحاه جانباً.. قلب القلم بين أصابعه رأساً على عقب، وراح ينقر على سطح الصفحة بتوتر، ثم وضعه فوقها برفق، ونهض.

شد قامته الرشيقة القوية متطاولاً، وترك نفسه يترنح قليلاً، ثم عقد كفيه بتراح خلف عنقه، وعاد يتمطى.. ألقى نظرة على الصحائف المحيرة.. كل هذا الكلام، ولا تزال شفاته متلاصقتين! وهمست لنفسها: ما أجمل شفاه المبدعين وعيونهم وأيديهم! وكأنما كان لتلك

النجوى سلطان على الروح الشفافة، فسرعان ما تحركت شفتاه، وهو يعود للانحناء على الصفحات يقلبها، يتفقد لها، وقد غمر وجهه روح شاعري لم تستطع له وصفاً. إنه ذلك الروح الذي يتلبسه كلما رضي عما أبدع.. عندئذ تحبس أنفاسها مبهورة، وهي تراه يدخل في برزخ العشق، وتعرف أنه الآن في أحسن حالاته.. قد ينطلق الآن فيمشط الشوارع سيراً، وقد ملأه مرح كمرح الأطفال، أو يمضي لبحث عن الأصدقاء القدامى، أو يتفقد الأماكن الحميمة التي بعد عهده برؤيتها، وربما تناول قطعة من الحلوى.. كأنه يكافئ نفسه على ما أبدعت.

راحت كعادتها تتابع حركاته وسكناته.. لا يزال منحنياً على الأوراق يقلبها.. يبحث عن مواضع بأعيانها، والقلم بين أصابعه كأنه واحدة منها.. مرات عدة رفعه إلى شعره.. مرره بين الخصلات الملتوية، فكشف عن نجوم بعيدة تتوامض في ليل الشعر العنيد. كانت تلك الحركة ترافق الاستغراق في التفكير.. أحفظها ذلك.. عاد يفرق.. لا تستبعد أن يمد يده فجأة ليجر الكرسي إلى موضعه، ويغوص فيه ساعات أخرى.. راحت تتلمل، ورمته بحزمة لطيفة من شواظها.. أضحكها ما فعلت.. أضغات أيوب... ؟ لكنها لا تريد الوفاء بنذر، إنها تريد أن تنزعه من هذه الغرفة.. ولا صبر بعد ساعات أربع من الاستغراق والاحتراق.

يعتصر ما بين عينيه بإبهامه وسبابته مرتققاً، مسبلاً جفنيه لحظات، ثم تعود عيناه من جديد تقفزان بين مواضع متفرقة.. سيماء الرضا على قسماته التي اعتادت وأحبت.. إنه آخر المطاف.. الدقائق تمضي، وهو يستعيد بتلذذ تذوق ما أبدع.. ما تزال تخشى أن يعود إلى

العمل.. لجأت إلى القلم، فتطلع إليها مستسلماً عبر الأصابع الرفيقة الحميمة، التي تهصره حتى تكاد تسحقه.. كانت حياته هنا، لكنه كان يشاركها التلهف إلى تلك الفسحة المشتهاة، فهو يتقن قراءة مؤشر الإرهاق في توتر تلك الأصابع المبدعة.

أخيراً هبطت آخر الأوراق على سطح المنضدة، وضحكت وهي تراه يعتدل في وقفته، ويزفر بارتياح: الحمد لله.. ثم يستدير برأسه لاستطلاع الوقت في ساعة الجدار. أرادت أن تبادل القلم الابتسامة، لكنها لم تره، وبحث عنه، كان قد احتفظ به بين أصابعه، وهو يتجه بخفة ومرح إلى المطبخ.

وابتسمت بحنان.. ها هو يكتشفه.. يضعه برفق فوق الفرن.. ثم .. ها هو ذا يشرب أخيراً كوب الحليب.. وها هو ذا يخرج كما اعتاد، وتبقى هي حيث اعتادت، أما القلم، فلم يعتد له مكاناً إلا بين تلك الأصابع التي سيمكث في انتظارها حتى تعود.



obeikandi.com

الشجرة

الصباح ما زال جميلاً، كما كان منذ الأزل.. كعهدي به أول مرة،
عندما رضعت ضياءه الألماسي بوريقة فستقية واحدة، يجرح النسيم
خدها الأزغب الطري.. منذ ذلك الصباح، والشمس الطيبة الخيرة ما
تزال تندفع إلى أعماقي دون كلل، فتمنحني الحياة والنماء...

كيف السبيل إلى إفهامها أنني لم أعد أريد ذلك؟ أنني أريدها أن
تكفّ عن التسلل إلى أعماقي الهرمة المتعبة؟ أن تكفّ عن الاستمرار
في فتح النوافذ بيني وبين عالم يغتال فيه كل جميل ونبيل؟ أن تدع قلبي
وشأنه، علّ الظلام يحمل إليه شيئاً من راحة، صار يستلبها النور..
أعرف أنني لن أستطيع إيقافها.. وأنه لا يحق لي مقاومة الحياة،
حتى عندما تكون حياتي، فإن سرّ إعجاز الحياة في كونها تمتلك ولا
تُمتلك...

لو أن هذه الآلة الرهيبة، التي أزلت بجوار جذعي يومذاك، قطعتني،
كما قطعت جاراتي على امتداد الشارع!.. لو أنني لم أكن الأكبر والأبهي
على تلك الناصية! من ذا الذي يمقت أن يكون الأكبر والأبهي! أنا..
عندما يسرّ بهائي المجرمين، ويعجب اللصوص...

الوجوه والمنازل والطرفات، وكل ما عرفت وأحببت، تغير.. وأنا
باقية كما أنا.. تمر بي الفصول في طريقها المرسوم في دورة الحياة،

تعريني وتكسوني، تنبت لي أغصاناً، وتخرج لي أوراقاً خضراً من سندس
وإستبرق، تكللني بغبارها، وتغسلني بمطرها، وتكويني بشمسها.. وأظل
مسمرة في مكاني أختزن غربة روعي بصمت السجين الراسف في
أغلال لا يستطيع لها كسراً، ولا عليها اعتياداً.

لم يقطعوني، فهم يريدون أن أظلمهم.. وأخلع الجمال على المدينة
المسروقة، التي ترفضهم أرضها وسماؤها، ويلعنهم ترابها وشجرها..
الهوية المزورة التي أعطوني إياها عملة زائفة لا غطاء لها.. أما أنا
فكيان آخر.. تعلمت أوراقى الحفيف من الأذان في مآذن الأقصى،
مذ كنت وريقتين ترتعشان على غصن نحيل، تسقيهما الماء والمودة
والرحمة، يدان خشتان دافئتان، وتهمس لهما شفتان يطيبهما عطر
قرآن الفجر المشهود: بسم الله الرحمن الرحيم.

كيف أظلمهم؟! وأنا أعرف أن العهد كان مسؤولاً، وأنا مرتبطة
بعهود، امتصصت بموجبها رحيق الحياة من أجساد أولئك الذين
يشاركونني التراب الطهور، يباركون بعيوني أولادهم الذين استشهدوا؛
دفاعاً عن شرعة الله في هذه الأرض، وتنقل إليهم فروعي فجذوري
أخبار أحفادهم، الذين يحيونها ويحيون على صدرها، فيطمئنون في
مراقدهم إلى أن القمح المجبول بأجسادهم، والبرتقال الريان من
دمائهم يتجسد رجالاً مثلهم، عندما كانوا أبناء الشمس والعطاء. وأن
ما أرادوه ما زال يتحقق ويعيش.

أنا أسيرة الحياة والتراب، أتجرع مرغمة كأس العيش حتى الثمالة،
وأتنفس مرارة القيد والإرغام والعجز، أحسها سماً يجري في أوصالي..

أتحرق رغبة في أن أتقلص وأضمر، فأفسح الطريق لسياط الشمس
الغاضبة، لتنهال على كل رأس آثم يحتمي بي...

ولكنها آتية.. تحتضن حقيبتها.. تلوح لطفل على الرصيف المقابل،
قدمها تجتازان الزمن، تخطوان إلى غد نظيف، تواصل صنعه على
مقعد المدرسة القديم.. ستقف الآن في ظلي في انتظار الحافلة...

رحت أتابع خطواتها، وهي مقبلة إلي، إنها تنظر في ساعة يدها..
ومددت بصري أبحث عن الحافلة من أعلى.. لا تزال بعيدة.. الآن تأوي
إلى جذعي.. ليبتها تقترب أكثر.. ها هي ذي تتوقف على بعد خطوتين
مني.. ووجهها الشاب الطفل ينضح توثباً وإصراراً ووضاءة.. تنقل
بصرها من جديد بين ساعة يدها، ونهاية الشارع الطويل، وتتلفت يمنة
ويسرة.. تخرج كراسها بتوتر، وتسند الحقيبة إلى جذعي، ثم تستل من
جيبها قلمًا، وتفتح الكراس...

أمد بصري.. شعرا.. تمحوبذيل القلم، وتبدل كلمة بأخرى..
شاعرتي الصغيرة.. عن ماذا تكتب اليوم؟.. كانت القصيدة السابقة
عن طفل يجمع الحجارة؛ ليقاوم الصهاينة.. واليوم! يا للكلمات!

يا بيتنا المحزون إنّا عائدون

فالزيفُ مثلُ الثلجِ

والحقُّ مثلُ الشَّمسِ

والليلُ لن يكونَ سرمدًا...

ارتعشت حتى الجذور.. تمنيت أن أنحني لأقبل رأسها الصغير..
وجاءت الحافلة.. لملمت (مرام) أذيال ثوبها وصعدت.. ومن جديد
لمحتها وراء الزجاج، تسوي حجابها.. وتنقح القصيدة ...

وها هو (حاتم)، جاري وحبيبي.. رأسه الشامخ يمنحني شعورًا
بالاعتزاز والعافية، وشعره اللطيف الأمواج يحمل إلي نكهة الغيوم
الطليقة فوق الكرمل، وعيناه الدافئتان الحيتان تزرعان الطمأنينة في
أعماقي.. استند بقامته القوية الرشيقة إلى جذعي، وزفر مطلقاً كمًّا
من الانفعال، كمن استراح لتوه من عناء كان يكابده.. أحسست بحنان
طاغ، تمنيت أن أحتضنه وأهمس له: الله معك يا بني ...

المسطرة الهندسية الطويلة تمتد بمحاذاة جسمه، وذراعه تطوق
الكتاب، ويضيء جبينه إرهاب السهر الساحر، الذي شاركته إياه ليلة
أمس.. إنه جاري.. أراقبه دائماً، وتبدأ وحشة ليلي عندما يطفئ نور
حجرتة، ويسرق الظلام مني ملامحه الأصلية النبيلة ...

ترى إلى أين وصل في بحثه عن العمارة في القدس القديمة! .. كم
أخشى أن يثير عليه نبوغه وتفوقه نقمة جنود الظلام! كم أشفق أن تمتد
أيديهم السود إلى طموحه وعرقه، فتحصص ثمارها، وتملاً ذلك القلب
الكبير المتطلع يأساً وألماً.. وجاءت الحافلة.. وثب حاتم رشيقاً قوياً
مصمماً، ومضى ...

وابتسمت... برغم عجزتي وضيقني ابتسمت.. فقد اكتشفت أنني،
وبرغم أنوفهم، بل بتدبيرهم، ما زلت أسهم في صنع الحياة كما أرادها
بارئها على هذه الأرض المباركة.. ما زال في إمكاني أن أكون واحدة

من تلك الأشجار الحية الطيبة الثابتة الأصل الباسقة الفرع، التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وتجد حياتها في كونها ركنًا يأوي إليه من يصنعون جمال الحياة ...

وهزنتي نشوة عميقة، وأنا أترف الروح باستشعار اتحاد من نوع فريد، بيني وبين حاتم ومرام، وكل أبنائي وأحفادي من أهل تلك الأرض، التي بارك الله فيها وحولها.. لقد بقيت هنا بإرادتهم، وبقوا على الرغم منهم.. لا يهم السبب، المهم أننا هنا أنا وهم.. نحن من هذه الأرض، بل هي منا. فإن أراد الصهاينة البقاء فليقتلوا كل من عليها، وليقتلوا كل الأشجار.. وبذلك يقتلون أنفسهم ...

أما نحن فسنولد من جديد، لقد أنبتنا الله من هذه الأرض نباتًا، فإن قضى أن يعيدنا فيها بأيديهم، فسيخرجنا منها إخراجًا، وسيضعنا قلب الأرض الحية، لنخرج بنبضه إلى النور من جديد ...



obeikandi.com

الصهيل

الفضاء النقي الذي لا حدود له.. لم أفهم كيف اتفق أن يكون، في وقت واحد، مصدر عذابي، وغاية روحي!

الشمس تشرق هناك.. أراها وراء السور المنيع المحيط بي.. وتجلدني بلا هوادة أشواق موجعة إلى السهول الضاحية المحرمة، ويستيقظ في برد وغربة، تترجمهما قشعريرة مفزعة...

حتى متعتي بالذكرى بدأت تتحول إلى ألم.. حتى طعم الحلم بدأ يتلاشى شيئاً فشيئاً.. بدلته مذاق الملح والفحم...

عندما أيقنت أنني في الأسر.. خيل إلي أن من العزاء، بل من الحق، أن أقول: أنا من اختار.. لكنني سرعان ما اكتشفت أنني واهمة.. لقد ضللتني اختياري فاندفعت، وخذلتني اندفاعي، فاستسلمت.

حملت ورقّي إلى المدينة ولم أتلطف، ولم أحرص على ألا أشعر بي أحداً.. وأنكرت المدينة ورقّي، فقد كانت تعتمد عملة أخرى، وأنكرتني، فقد كنت فيها غريبة الوجه واليد واللسان.. كنت فيها من أنباء الغيب التي لم تهتدِ إلى ما وراءها، فبنت على جثتي بنياناً، ولم يقل الذين غلبوا على أمرهم: لنتخذن عليهم مسجداً...

إنني غارمة إلى حد قصم الظهر.. ذلك أن من حملت إليه ورقّي كان مدينة لا تعترف به، ولم يعن له شيئاً، وما كان يمكن أن يعني.. ولم يكن يملك لي إلا بنياناً يقيمه فوق جثتي، كما لا أملك له إلا الحيرة

والببلبة، حتى أثر السلامة، فلم يمار فيّ إلا مرء ظاهراً، ولم يستفت في منهم أحداً.

لم يخدعني قط، ولعل هذا كان فضيلته الكبرى.. أنا التي رفضت أن أصدقه، عندما لم يخف عني أنه كغيره تماماً من صائدي الخيول، الذين تعج بهم تلك السهول والتلال البهية.. أصررت على أنه مختلف، أنه طراز فريد لم يكتشفه أحد قبلي، إنه جدير بكل ما أنوي أن أمنحه إياه، مما لم ينله غيره من قبل.

حاورني طويلاً.. حاورني بصمت، ومن بعيد.. راح يتربص بي أنى اتجهت في مثابرة وصبر دؤوبين.. لكن محاولاته لإحاطتي بأنشطته كانت كلها تخفق، ولا أذكر تماماً متى غداً تربصه بي بعضاً من متع السهول، ونشوة الإصباح والأمسية.. رحت أراقبه، وأترأى له معاينة، فلا يملك إلا متابعتي بنظرات غامضة، يغلب اليأس فيها الأمل، وأنا ألعب الريح في المروج البعيدة...

بهرني عناده وصبره.. كان له ساعدان قويان، وكتفان مشرفان يوحيان بالشموخ.. بهرتني حتى العشق خطواته الواثقة المصممة، وبراعة يديه في تهيئة الحبال وإلقائها، وإحكام تداييره في معالجة طرائده.. وقررت: إنه يستحق أن ينتصر علي.. ولم أدر وقتها أنني كنت أقامر، غير مضطرة، بكل شيء.

ودعوته، وأنا أمنع ما أكون عليه، وهو أحرص ما يكون علي، وأياس ما يكون مني.. ناديته كما لم يعتد أن تتاديه فرس، فهب إلي بحباله، تفترسه الدهشة، ويساوره الشك فيما يسمع، ويرى..

لا حاجة بك إلى الحبال يا فارسي.. سأمنحك الشعور بأنني أخضع لك، لأنك أهل للأسري.. لأنك تستحق أن أكون لك أنت دون الصائدين والسهول والفضاء.. وكان هذا، في اعتقادي، أثمن وأعلى ما يمكن أن يقدم لعزیز.

أتيت في إغفاء يقتنصها.. انحنيت عليه بود، قررت ألا أجفل متى استفاق، وأن أستسلم إليه كما تحدث الأعجوبة أو المعجزة، فلا بد من أن يفهم أنني أتعمد ذلك وأقصده، وأنتي لست أسيرة تحبسها القيود، وتمسكها الأسوار، ولكن أسيرة يكبلها الحب باختيارها.

كانت أسعد لحظة في حياتي تلك التي رأيت فيها، كوميض البرق، الدهشة المنبهة في عينيه، عندما هبّ صعباً، يستل أنشوطته؛ ليقذف بها إلى عنقي.. وسربلنا ارتياح المفاجأة، كنت في ضياع.. وكان في حلم.. إنها اللحظة التي كان يمكن أن تغير كل شيء، اللحظة الوحيدة التي كان بإمكانني فيها العودة من حيث أتيت.. اللحظة الأخيرة التي كان لي فيها القرار، والتي سحقها اغتالها الشلل، أمام روعة اللقاء بعد وصب الشوق، حيث نسيت تماماً ما كان يجب ألا ينسى أبداً...

لم أقاوم حين وضع أنشوطته بعنف حيث أراد.. كنت أمل.. أتوهم.. أنتظر، في يقين ضبابي، أن يفهم.. أن تحدث فجأة المعجزة، ويفهم. لكن تصاعد دهشته بدأ يغرز خنجراً لثيماً حارقاً في صدري.. رحت أترس في عينيه بلوعة.. أترقب اختفاء تلك الدهشة القاتلة.. أترقب الضم.. أترقب، وقد طالت النظرة، أن تعقبها تلك الأمنية الغادرة التي كانت تقر إلى المجهول ساخرة متشفية.. أن يمد يديه تحت نظراتي الولهي؛ لينتزع الأنشودة من عنقي...

واختفت الدهشة أخيراً.. عندما راح يحكم حباله حول عنقي بعناية، وكأن ذلك كل ما يجب عليه عمله.. كأن ما حدث لا بد أن يحدث؛ لأنه نتيجة منطقية لانخداعه الطويل بقدرتي، إحساسه الخاطئ السابق بأنني منيعة قيمة.

برغم ذلك كله ظلت أحبّه.. فليست نبضاتي بهينة علي، وأنا مخلصة لها إلى درجة التضحية. وبات الأمل كل ما أملك.. وكان عنيداً وصلباً، حتى وهو يتفتت تحت ضربات مطرقة الواقع.

إلى قعر زنزانتى كان يصلني دائماً نداء السهول، وكنت أجيبها مهزومة القلب مجلجلة الصهيل.. أنا سعيدة هنا!

كنت أتمنى أن أقول يوماً: أنا قادمة.. لكنني لم أفعل حتى اليوم. شيئاً فشيئاً أيقنت أنني فشلت.. أن فارسي لم يفهم يوماً ما أردت.. أنني لست الآن أكثر من واحدة من تلك الخيول، وليس إلا صائداً يؤكد بأسري براعته ويثبت نجاحه.

توازت الممرارة والحب.. بعد أن أرهقني صراعهما الطويل الشرس.. ولم يلاحظ فارسي ذلك، فقد كان منصرفاً إلى إخضاعى وتطويعى وتدريبى، بينما كنت أستमित للفته إلى الفرق بين ما يأخذه منى قسراً، وما يمكن أن أعطيه إياه طوعاً.. كنت أريده أن يفهم أنني أعطي أكثر بكثير مما يمكن أن يؤخذ منى.. ثم اكتشفت أنه لا سبيل إلى ذلك، ليس لأن ما أريد صعب أو غريب، ولكن لأنه لم يكن يعني له شيئاً.

كان يثيره عنادي تماماً كما يثيره عناد الجياد الأخرى، ولم يكن استسلامي إليه في البداية إلا دليلاً على وجوب استسلامي إلى

سوطه وحباله الآن، وراح يمارس عمله كمروض له سمعته التي يحرص عليها، فانتظمت بمقتضى عدالته المشهودة في رتل الجياد التي يملك ويروض، ينالني ما ينالها من لسع السوط، والحبس والقيد، ومكافآت الامتثال والخضوع...

واستقر لدي أنني خرقاء، سعيت بقدمي إلى ذي مدية، وغاليته في ذبحي، كما لم يفعل أحد، مما أباح له أن يعدّ ذلك برهاناً على براعته وتفردّه. ولم أكن أملك ما أدعي عليه برهاناً، ولم أحفل كثيراً بذلك، فلم يكن يهمني سواه. وكنت أظن أن معرفته للحقيقة تغنيني عن البرهان، وذلك قبل أن أكتشف أنه يتجاهلها عمداً، بل يسعى إلى طمسها والتعفية على آثارها. كأنما هو يخشى أن يسلبه إقرارها شيئاً من مجد، كان قد غنمه بارداً في غفلة من الأعين.

راح يجرجرني على صخرة مذبحه، شاهرًا مديته، متباهياً بقدرته وقوته، مبرهنًا على براعته وجدارته. وأشهد أنه كان نزيهاً، يقدم الشاهد تلو الشاهد على عدله واستقامته، في معاملة جياده كلها وفق قاعدة واحدة صارمة، لا يحيد عنها، كما تقتضي قوانين المهنة، وكما ينبغي أن يفعل المروض الفاضل.

وكنت مطيعة منصاعة ما استطعت.. أزجي، حية منكسرة، براهيني غير المعترف بها، على أنني أملك هذا وذاك وذاك، ولم يحدث مرة أن عنت له كنوزي تلك شيئاً.. ووجدتني بين هاويتين مخوفتين: خسران الحب وخسران الذات. ولم يكن البرزخ بينهما يتسع لقدمي معاً، فكنت دائمة التأرجح، وكان لا بد لي من الاختيار، فاخترت الحب.

وهكذا رحت ألتمس له الأعذار.. ماذا يعني الجواد للمروض أكثر من القوة والطوعية وسلاسة الانقياد، وتوفير متعة الركوب ونشوة الفوز والمنافسة؟ لقد غفر له الحب، ولكن الذات المفجوعة بأخص ما تملك لا تحب.

تعبت.. ولم يكن ثم طريق.. واستسلمت خائرة الروح والجسد.. لا يحق لي أن أطالبه بالتخلي عن أسلوبه، مقابل ما قمت به بنفسي ولنفسي، دون أن يطلبه، أو يعلن استعداداه لدفع ثمنه.. ثم إنه في الحقيقة لا يملك ذلك الثمن، وهو لم يطلب أكثر من جواد يروضه. لقد حصلت على ما أردت، فلأدعه يأخذ ما يريد.

وهكذا قررت إلغاء بعدي الثالث، عمقي الموجع، الذي لا يريده، ولا يحفل به، ولا يتفهمه غيري.. هكذا خيل إلي أن بإمكانني تجاهل المديّة المزروعة في قلبي، بل تجاهل القلب نفسه، ورحت أتحنس أناي المقترحة.. وكنت على يقين من أنني لا يمكن أن أكون بلا قلب.

مديته المغروسة في، إذاً، لم تجهز علي، وما كان، ولن يكون لها، أن تفعل، فأنا لا يقتلني إلا ما ينبع من ذاتي، ولا يحييني إلا ما ينبجس منها.. لكنني كنت مذبوحة من دون مديته.. مذبوحة بخيانة اختياري واندفاعي.. بإفلاسي حتى من حق التظلم إلى نفسي، أو إلى أي كان.

عناكب اليأس تشلني بنسيجها اللزج.. هي الأخرى تأسرني.. كيف أسمح أن تتلاشى تلك الروح الرائعة التي أحب، لتحل محلها روح ذات حدود محصورة بأضلاع، أو محاطة بخط مغلق، أو حبيسة في نقطة لا يمر بها مستقيم، نقطة سائبة في مستوى وهمي لا وجود له أو لها؟! هنا لا أملك أن أختار، فلا قابلية للاختيار بين ما لدي من متغيرات.

الفضاء الذي يمتلكني، الذي يناديني بالقوة نفسها، بالتصميم نفسه، والوجع نفسه منذ غادرته، لم يبقَ منه إلا الحلم السرابي الزلق، أستوطنه بشكل ما، ولا أعرف لهذا التشكل تسمية، ولا أستطيع له تعريفاً.. الحبال والحواجز والجموع التي تحرق بالحلبة، حيث يتجسد انكساري وقهري، تسخر من الفرق الهائل، بين الحقيقة التي تتوهج في صدري وحده، والوقع البليد، الجاثم على إرادتي يخنق الأنفاس في صدرها.

أفكر في القفز إلى هناك؛ لأستعيد نفسي وليعرف الجميع الحقيقة لأعري الحقيقة له ولهم جميعاً، لأثبت أنني لست أسيرة مغتصبة الإرادة، أن رقبتي لم تخلق للقيد، وعيني لم تخلقا للجدران والظلام.. أستطيع ذلك، أجل.. فأنا، كما زلت أذكر، أملك أجنحة خفية.. وما من شيء لا يستطيعه من يقرر دفع الثمن!

ولكن.. من يملك ذلك الثمن الـ ...

أنا؟! أجل إنني أملكه : أتكر لكل ما صنعت، أمحو من حياتي تلك الخطوات القاتلة، التي طوت ذلك الطريق.. أمحو اختياري الغادر.. أمحو اندفاعي الأعمى، أمحو فارسي الذي لم يستطع أن يفهم، أمحو كل من رآني أستسلم لقبضته المدعية، وحواجزه العبيثة، وسوطه الأرعن، ومديته المزيفة.. هو ذا ثمن الحقيقة!

... مرة أخرى ألجأ إلى ورقى البهرج، عمليتي الباطلة.. عمليتي التي لا تدفع نقداً، ولا تحول، ولا يقاوض بها. هذه المرة أنا أدرك أنه لا معنى لامتلاكها.. أن الحقيقة مدينة أخرى من تلك المدن التي أفتح كفي على أبواب متاجرها بورقي، فتكره وتكرني...

السهول البهية القصية التي لا تزال تستحم بمطر الصباح الربيعي،
وخيوط الشمس المذهبة لا تزال تتبعثر في النثار الألماسي للديم البيض
الناعمة، وتهوي بعطش وشوق إلى المروج السعيدة، والفضاء واسع
واسع إلى ما لا نهاية، أنا.. لا جناحين ولا قوائم ولا عيين لي، ولا أملك
إلا الشوق والهزيمة.

وأطلقت شأواً من الصهيل الذبيح.. واختلطت دموع مرّة حارقة
بطعام الصباح الفاخر، الذي راح يتجمع في حلقي حفنة وراء حفنة
كالجارة...

ومزقت أحشائي آلام غريبة، وأنا مطرقة فوق الطعام، ثم تجمعت
من حولي أقدام كثيرة ذات أحذية طويلة.. وعبر الطنين الذي يشبه
زمجرة الرعد في أذني وصدري وأوصالي، تسلفت عبارات: إنها
مجنونة.. مسكينة.. لعلها مريضة...

ومد أسري يده.. وراح يربت رأسي.. بحنان!



قُطَيْطَة

استلقت أمه منهكة قرب مهد أخيه الرضيع، ولم تلبث أن راحت هي الأخرى في سبات عميق. أما هو فما زال ممدداً فوق الأريكة الكبيرة، تتقاذف عيناه الزرقاوان اللامعتان في أرجاء الغرفة الواسعة، التي تلفها رطوبة محببة، في ظهيرات آب اللاهية، وينطق كل ركن فيها بالنظافة الفائقة التي تمتاز بها بيوت البسطاء، في أحياء حلب الشعبية.

توقفت نظراته المنقبة على التلفاز المغطى، وعبر خياله النبض، راح يتوأنب أبطال قرية التوت، وكعبول، وريمي... ثم طالعته صورة جده الكبيرة على الجدار.. وتحلّب لعبابه لمرأى جيوبه المملأى بالحلوى والنفاخات الملونة.. وأخيراً استقرت عيناه على فرجة الباب المفضي إلى درج السطح، وقد تسلل منها وهج طيف الشمس، التي تتسكب على كل شيء في الخارج.. وفجأة رآها.. قطيطة شقراء، مدورة الوجه والعينين، تحشر جسمها الضئيل بين المصراعين، وتتساب إلى الداخل بصمت وأمان، وكأنها لا تراه...

تحفز كل شيء فيه.. وهتف أخيراً، بصوت يكاد يسمع، برغم حرصه على إغفاء أمه، التي هي الآن أثمن ما لديه: قطّة ... !

واعتلد فوق الأريكة، مصوباً نظرات متلاثلة حذرة إلى أمه النائمة. ثم هبط الأرض باحتراس، بقدميه البضتين العاريتين، وجعل يتقدم

نحوها هاشاً، تكاد ثرثرة ضحكته العريضة ترن، في صمت وسكون القيلولة، وراح يدعوها إليه بإيماءات عفوية من كلتا يديه، ومن رأسه، ومن عينيه.

انكمشت القطيطة قليلاً، فتوقف مشفقاً أن تنفر، وطفق يخالس أمه نظرات خاطفة لا تكاد تخلو من خوف.. أرخت الزائرة عضلاتها مطمئنة، كأنما أنس ضعفها بسنواته الخمس الغضة، لكنها لم تتقدم خطوة واحدة...

فجأة تذكر شيئاً.. عاد إلى سرير أخيه، وتطاول حذراً يستلّ زجاجة الحليب التي لا تزال دافئة.. رفعها أمام عينيه وهمس لنفسه، وهويتفس بارتياح: ... فيها... واستدار إلى القطيطة، يلوح لها بالزجاجة، وأراحه أن لمس منها المزيد من الاطمئنان.

هبط الأرض، في مكانه، ثانياً ركبتيه، وراح ينفذ الزجاجة بقوة فوق البلاط المصقول، فتناثرت منها بضع قطرات.. لمعت عيناه بفرح، وهو ينقلهما بين قطراته الثمينة، وأمه النائمة، والتفت إلى القطيطة مغتبطاً..:

تعالى.. خذي حليباً. لكنها كانت منصرفة عنه، تنظر في اتجاه آخر.. فانتصب وهو يحس بشيء من الخيبة والغيظ، وأخذ ينقل قدميه ببطء وحذر، باتجاه الزائرة الغبية، يدعوها بكلتا يديه، هامساً: بس، بس... بس، بس... حليب، حليب...

كان محمد، في ديبه اللطيف، يحاذر شيئين خطيرين: يقظة أمه، وانفلات القطيطة، هاربة من حيث أتت. ولكن أياً من ذينك لم يقع..

كل ما في الأمر، أن القطيطة استقبلت الزحف الحلو بشيء من التوجس والانكماش، ولم تفكر قط، في الباب الذي دخلت منه قبل لحظات...

أخيراً وصل إليها.. انحنى يلمس رأسها بحذر وانبهار.. وأزهرت ابتسامته، واتسعت، وهو يراها تغمض عينيها باستسلام.. وهكذا نسي أمه، وقطرات الحليب، واقترب منها أكثر، وأحاط عنقها الناعم بكفيه، محاولاً جرّها إليه بلطف: تعالي.. تعالي...

أبدت القطيطة شيئاً من المقاومة، فعدل عن جرّها، وعاد يقترب مجرباً أن يحتضنها بذراعيه.. وأخيراً حملها.. ضمها إلى صدره.. كان يتخيلها ثقيلة الوزن كأخيه، لكنه فوجئ بخفتها، فاستوى بها واقفاً يعصف به فرح وزهو، وتثرثر فوق شفّتيه ضحكة خافتة تكاد تقفز من ابتسامته العريضة، وطفت على وجهه البراق نشوة النجاح بالانتصار على هذا المخلوق الناعم المشتهى.

راح يحرق في جسدها اللدن المستسلم إلى ساعديه، ويتحسس بذقته شعرها المغري متلذذاً.. ورفعت وجهها إليه، ثم طرفت بعينيها العسليتين المستسلمتين، فاستخفه فرح وحبور سال لهما لعبه.. أحكم ساعديه حول جسدها بحرص من يحمل كنزاً نفيساً، واتجه إلى الباب، يدفعه برفق بقدمه العارية، حتى كاد يغيب الشق بين مصراعيه...

عاد يتفرس في عينيها المتحبتيتين، وقد أمتعته ألفة بريئة ودفع حميم تجيد الطفولة التمتع بهما.. وفجأة تذكر: تريدان حليباً؟

وبحث بنظره عن موقع بقعة الحليب، فهدته إليه الزجاجاة، فاستدار بها، وهو يتمتم بحنان، مستحضراً صوت أمه: جوعانة؟.. أنت جوعانة؟

وانحنى يضعها على الأرض، في مواجهة قطرات الحليب: كلي..
كلي ...

مشت القطيطة فور ملاسة قوائمها الأرض، فعاد يمسك بظهرها،
ويدير جسمها النحيل إلى حيث قطرات الحليب التي تكاد تجف: أوه..
هذه، هذه.. ولكنها لم تهتد إليها، إلا بعد أن كاد يلصق فمها بها. وفي
لمح البصر اختفت بقعة الحليب، وهزه طرب قفز له، وانفلتت ضحكة
جذلى من بين شفثيه، وهو يغغم كالمسحور: يا الله.. انتظري..
انتظري هنا.. لا تقتربي من أمي.

مشى خطوتين من دونها، ثم عاد كمن فطن إلى شيء.. وانحنى
يحملها: تعالي.. تأكلين سمسمة؟

ودخل بها غرفة جدي المشرعة الباب.. أنسته سعادته بها
الامتعاض الذي يحسه كلما دخل غرفة جديه المسافرين.. ها هي ذي
علبة الحلوى المعدنية المدورة في متناوله كالمعتاد.. رفع الغطاء غير
المحكم بيد واحدة، وكشف الغطاء الورقي الأبيض الذي تحرص جدتي
على ستر سطح الحلوى به، ثم التقط قطعة شقراء لماعة، ولم يستطع
مقاومة إغراء القطر الشفاف المتبلور على سطحها، فلعلقتها بشهية
مرات عدة، ثم قربها من فم القطعة.. هشت لها، وتشممتها، ثم طرفت
بعينها، وأشاحت لا مبالية. قال غير شديد الأسف: لذيذة.. انتظري
كيف أكلها...

ورفع رأسه فاتحاً فاه، وألقى بالقطعة فيه، وراح يمضغها ويتمطق
هازاً رأسه، مبالغاً في إظهار تلذذه، كما لو كان يغيظها: أرايت؟

غادر الغرفة جذلان، مستمتعاً بتجوله بها، متحرراً من خطر أمه، التي لا تسمح بوجود قطرة في البيت، وقد سبق أن طردت أكثر من واحدة حاول اقتناءها... فجأة ماءت، فأجفل، وتراخت يداها عنها، فهبطت الأرض بخفة.. وماءت ثانية، وراحت تمشى ببلادة.. تبعها محمد فزعاً، يضغط بسبابته على شفثيه الورديتين المضمومتين: هس هس.. الآن تستيقظ، وتلقي بك خارجاً ...

وأضاف يشاغلها عن المواء: تأكلين خبزاً؟

ولم ينتظر جوابها، بل سارع إلى المطبخ، وهو يدعوها بحركات يديه مغرياً إياها باللحاق به، في محاولة مستميتة لإبعادها عن مضجع أمه.. كان مطمئناً إلى أن قدميه العاريتين، وقوائم القطعة المزغبة، لن تحدث صوتاً يوقظها.. وطار فرحاً عندما راحت تتواثب خلفه.

كانت بقايا طعام الغداء لا تزال في أوانيها، وجعلت القطعة تتمسح بساقيه، مشرئبة الرأس والذيل.. أحس أنها ستموء في أي لحظة كانت، فعاجلها بقطعة من الخبز: هذا خبز فيه «كباب» ...

ماءت نصف موءة خافتة، واندفعت تتشمم ما في يده من همكة، فاضطرب، وعاجلها بإلقاء قطعة الخبز أرضاً، فهرعت تلتهمها بنهم.. جلس القرفصاء، شاخصاً إليها ببصره، لاهياً عن كل شيء.... راح يحاكي حركات رأسها، وفكيها بتجاوب غريزي.. ثم زادها قطعة ثانية وثالثة، حتى لاحظ عزوفها عما يقدمه إليها.

حملها بين يديه، ونهض بها متثاقلاً، ثم رفعها إلى صدره، وهمس: قلبي: الحمد لله رب العالمين.. وبدا له أنها قالت، فأضاف متلبساً

سحنة جده، عندما يقول بعد الطعام، متعمداً أن يسمعه محمد: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وجعلنا مسلمين.. وأضاف كما يضيف جده: أعيدي ...

غادر «محمد» المطبخ بحمله الثمين نشوان، لا تسعه الدنيا، وصوب نظرات متفحصة إلى أمه، ولما اطمأن إلى أنها لا تزال في سباتها، تقدم حذراً من الأريكة، التي كان مستلقياً عليها.. وضع القטיפطة أولاً، ثم تبعها بأقل قدر ممكن من الجلبة. لكن الأريكة أصدرت صريراً لم يكن يتوقعه، فلف ذراعيه العاريتين بحركة عفوية حول القטיפطة، وانكمش في مكانه متظاهراً بالنوم، وقد جعل ظهره إلى أمه.

انبعث صوت الأم متشككاً خفيضاً: محمد.. لم تتم بعد؟!

فتماوت في ضجعته.. وسال الصمت اللذيذ، فغمر الغرفة كلها.. وراح محمد يتأرجح على صفحة ذلك الصمت الملساء المترامية، وقد احتضن القטיפطة الشقراء.. ولم تكرر الأم سؤالها، أما محمد فظل يتأرجح بالقטיפطة رويداً رويداً، وهو يبتسم بسعادة...

فتحت الأم عينيها، وألقت نظرة ملهوفة على ولديها.. كانا لا يزالان نائمين.. أي حظ سعيد هبط عليها اليوم!

وتحولت إلى الأريكة، حيث يرقد محمد، وغلبتها ابتسامة.. عجباً! كيف أتاح لها اليوم هذا القدر من النوم! ذلك العفريت الصغير! ها هو ذا يغفو بسكينة، تلو وجهه سمات الرضا، وقد عقد ذراعيه كمن يحتضن عزيزاً...

لمست جبهته بلطف، تمسح حبات دقيقة من العرق، كانت تتلامع بين خصلات شعره المذهبة المتهدلة على جبينه. وألقت نظرة إلى الباب.. إنه مفتوح، وجسد الصبي مبلل بالعرق، ولن يكون حسناً أن تطوله نسيمات الغروب الوشيك.. وسارعت بإلقاء دثار خفيف على خصرته...

ما إن ولج الأب باب الدار بعد يوم طويل من العمل، حتى هرع إليه محمد، والدموع لا تزال عالقة بأهدابه، وانخرط، بلا مقدمات، في بكاء مفاجئ، لم يلبث أن غدا نشيجاً ملتاعاً.. ووسط دهشة الأب وتساؤله، راح الصغير يشرق بالكلمات: ماما رمت القططة...

قطب الأب مستغرباً، متظاهراً بالاهتمام، وهو يقبل الصغير متلطفًا، ويكفكف دموعه مواسياً: أي قططة؟! - قططة جاءت.. أطعمتها...

وراح يعول، مطلقاً العنان لدموعه وشهقاته. وهدده الأب متعاطفًا: من أين جاءت؟ - من الباب...

وأراد الأب أن يتأكد أن الأمر حلم، فقال مترفقًا: ماذا قالت لك؟ رفق محمد أباه باستنكار، وصاح حنقًا: ... القططة لا تتكلم...

صمت الأب مفحمًا، وفكر ثواني، ثم عاد يقول في محاولة لجمع مزيد من التفاصيل التي قد تعين على اكتشاف الحقيقة: ماذا أطعمتها؟

- حليبا وخبزاً.

وتدخلت الأم بقلق: أي حليب.. لم يتبق لدينا شيء منه.

عاد محمد إلى البكاء بمرارة، وراح يكرر بعناد وتحدٍ: أطعمتها حليبا وخبزاً.. حليبا وخبزاً...

نظر الأب من فوق رأس الصغير إلى زوجته، متسائلاً: وكان واضحاً أنها في مأزق حقيقي.. قالت، متأملة الصغير بقلق: ... والله لا أعرف...

وأضافت متعجبة: كأنه حلم بقطعة.. هذه المرة الأولى التي ينام فيها نوماً عميقاً بعد الظهر، ولم أكد أفرح بذلك حتى استيقظ، وراح ينقب في كل زاوية من البيت وهويبيكي، ثم راح يطالبني بقطعة. وعبثاً حاولت أن أفهم ما وراء تصرفه ذاك ...

كان محمد يصبو نحو أمه نظرات منكرة مكذبة، وقد خفض من حدة عويله؛ ليتسنى له سماع كلامها. واستفهم الأب سرّاً: أهذا صحيح؟

أجابت الأم حيرى: أجل والله.. وأنا في دهشة، وحيرة ...

مسح محمد عينيه بظاهر يده، ونظر إلى أمه بغيظ وتحدٍ: سترين.. لن أنام بعد الظهر أبداً ...



ذو العنين السوداوين

توسعة الحرم المكي بحر من مرمر براق، يتوامض على صفحته ذهب شمس الظهيرة الخجول، متخللاً رذاذ الربيع الألماسي الذي يغشي البناء الجليل، والجبال الرمادية، وهي تحتضن البيت كما يحتضن الصدر القلب.. وجزر صغيرة بيض وسود من المصلين تتناثر هنا وهنا، تتابع فريضة الظهر وراء إمام الحرم.

هبطت السلم المرمرى محتدمة، أخرج صغيري المتعثر الخطى، في محاولة لتعويض الدقائق التي أنفقتها في بعض شأنه، فأخرتني، حتى فاتني بعض من الصلاة...

أعاد المشهد المؤتلق إلى النفس سكينتها، وإلى الصدر إحدى أعظم منن الله، التي تملأ الروح والجسد نشوة وشكراً، منة النفس الطويل العميق، الذي يعيد إلي مذاق متعة الحياة، بعد ضيق أو شدة، فأستقبل أموري، وكأنني ولدت لحظتيئذ...

دخلنا الحرم، والمصلون في القعود الأول، فلبثت، منتظرة قيامهم إلى الركعة الثالثة، أختزن في الروح أنفاس الخلد، التي تتخافق من حولي نعيماً لا يدرك كنهه، ولا تُحدّ روعته، وأهْيئ النفس المضطربة لسكينة الاتصال بالله، والركون إليه.

اتخذت لي مكاناً، وأجلست الصغير إلى جوارى.. وفي لحظة خاطفة، وجدتي ملقاة في لجة عينين طفلتين، حجباً ليلهما الحي

المترع بالأسرار والبوح الضياء الماتع، والذرا المغسولة بالمطر والشمس، وحزم المصلين المتناثرة على البلاط المتلألئ... كل شيء اختلط، كل المرئيات ذابت في تلك الدنيا من الدهشة والافتتان، والرغبة المشبوبة، المكبوحة بحواجز الاستحالة والحرمان، الرغبة المقهورة بصمت، الموجعة ببراءتها وطهرها، ونقاء الروح المتلهفة المتوارية خلفها. لم يكن ثمة ألم أو حسرة، إن هي إلا أسماء سمينها، أما الطفل فلا تعرفها روحه الملائكية.

استلّ الصبي الأسمر عينيه الأسرتين من عينيّ على عجل، غير مكترث بنظراتي المأخوذة، وصبهما بشغف فاضح على يدي ولدي، اللتين تحتضنان دلوًا بلاستيكية لطيفة، تشف عن مجسمات زاهية، يتشكل من مجموعها قطار ملون طريف.

دفقة هائلة من فوران الشعور راحت تعصف بي، ووجدتني كمن يقف في فوهة إعصار.. نازعتني النفس إلى الانحناء على الصغير... إلى ابتكار ما يذيب تلك النظرة التي راحت تسوقني بلا مقدمات، وتصهرني حتى الاختناق... تمزقت لحظة بينها وبين تكبيرة الإمام، ثم اندفعت بلهفة لا سلطان لي عليه إلى عمق الصلاة... كنت كالمنومة فوق صفحة البحر، مسلوبة الاختيار والفعل. ولم أفلح في انتزاع شطر روحي، كما انتزعت عيني، من عيني الصغير الأسمر النحيل الموجعتين.

جلس طفلي صامتًا، وراح يجرجر قطاره بتيام، بين ساقيه المتباعدتين.. فقد لاحظ اهتمام الصبي المنتصب المواجه له، وهو

يلتصق بجنب أمه متشبثاً بثوبها، كما لو أنه يعول على قبضته وحدها في الاحتفاظ بأمه، أما ما تبقى من كيانه، فقد كرسه تماماً لتلك المتعة الكبرى...

وكانت الأم منهمكة بتأدية الصلاة مع الجموع، غير آبهة بالجسد الضئيل المتأرجح مع كل حركة من حركاتها، ذاهلاً عن كل شيء، إلا عن قطار صغير ملون، ليس له، تلهو به كفان صغيرتان مثل كفيه تماماً...

ظل المشهد يحاصرني بالحاح، وأنا أجاهد للتخلص من أحاييله البارعة، والتملص من سطوته المحكمة، فأغلبه تارة ويغلبني تارات، حتى قررت أخيراً أن أغمض عيني، ليتسنى لي الانصراف إلى الصلاة. أما طفلي، فقد أَرْضَاهُ افتتان الغريب الصغير بما في يديه، فراح يبتكر الحركات والأصوات، ليبقي على هذا الإعجاب الذي يمتعه. وأما ذو العينين السوداوين، فقد استسلم بكليته إلى القطار المرح، فلم يعد يربطه بالدنيا سوى تلك الحفنة، التي تتشبث بها قبضته الدقيقة السمراء، من ساري أمه الرث.

كان جسده الضئيل يتموج مع كل حركة تأتيتها الأم، فيترنج ذات اليمين، وذات الشمال، وهو منصرف إلى تلك المتعة الكبرى، بعد أن اطمأن إلى إحكام قبضته على الحفنة الثمينة التي تعني له الأمان.. ولعلها كانت الشيء الوحيد الذي يهيمه، أكثر من القطار الصغير.

دون أن يكون لي الخيار، وعلى نحو لم يعد بإمكانني تذكره، وبرغم المحاولات التي لم تقتر لأبقى مع صلاتي، ارتحلت مع ذي العينين

السوداوين في القطار المسحور.. راحت أمواج من اليقظة والحلم تتقاذفني بلا هوادة.. الصلة الخالصة بالمطلق، الذي تشدني إليه الآيات الخاشعات البينات، وعالم الملائكة، الذي تذبجني على عتباته تلك الرغبة الشهيدة المجدلة في أغوار العينين السوداوين...

كنت أراها برغم عيني المغمضتين.. كانتا تخوناني.. يرغمهما انبهاري، ويغتال إرادتهما ذلك الشعور الذي أقام وجداني وأقعده، دون أن أستطيع له تسمية.. كنت مستلبة تمامًا أمام عالم الأحاسيس الذي تضج به العينان الناطقتان.. لم أستطع إلا أن ألبى دعوتهما إلى تلك الرحلة المسحورة في القطار العجيب.. رأيت ذا العينين السوداوين، وهو يستقله، وراقبته وهو يطل من النافذة.. يترنح ضاحكًا في المقطورة البرتقالية.. يدير بقوة وبراعة عجلة القيادة.. رأيتَه يحتضن القطار.. ينبطح أرضًا في مواجهته، ويعطيه إشارة الانطلاق.. سمعته يصفر؛ ليخلع عليه صفة القطار الحقيقي.. ولا أدري من منا كان الأصغر لحظئذ!

كنت أمام حالة فريدة من الشغف والذوبان والاستغراق، استحضرت شيئاً من متعة الاكتفاء، بل الغنى الذي يملؤني، عندما يماهيني معنى أو فكرة، ثم يستجيب لها القلم، فينعم لي بوصل قلوب أحيا بها.. إنها المتعة التي أحلم باشتيارها في حالتها المثالية، بمراقبة عبقرى في لحظات الإبداع المهيبة.. وما زال ذو العينين السوداوين، حتى يومي هذا، الحالة الأقرب إلى المثال المنشود.

شغلني ذو العينين السوداوين عن خشوعي أكثر من مرة، فكان لا بد لي من الحرص على إغماضتي، كان لا تأسرني عيناه، كما يأسرهما

القطار.. ولا أدري أين من ساحة الشعور وجدت مكاناً لقرار كالوميض:
سيكون هذا القطار لذى العينين السوداوين...

فرغ المصلون من الفريضة، ونهضت لإتمام ما فاتني.. وعبر
واحدة من انفراجات الجفون المسروقة، رأيت الأم تهب عجلي، وتستر
الصبي المستسلم، وتجره منطلقاً به، وهو يتلفت إلى القطار...

وطار قلبي وراءه... راحت المفاجأة والدهشة والرجاء تعصف بي،
وأنا عاجزة مشتتة الفكر والقلب والروح.. مزقتني الصلاة والعينان
السوداوان، وأحسست بقلبي ينخلع على آثار خطوات الصبي المتعثرة،
وهو يجر إلى المجهول تحت سمعي وبصري، وبرغم أنف رغبتني
اللاهبة، التي تعدل رغبته أو تزيد عليها.. لقد منحته القطار الذي
اشتتهى، دون أن أحظى بسعادة تلك اللحظة التي كان كلانا يتلفف
عليها، سعادة امتلاك ذي العينين السوداوين القطار المشتهى.

ضاع ذو العينين السوداوين في الحرم الذي لم أره واسعاً، كما
رأيته في ذلك اليوم.. ضاع وأنا في الصلاة.. قد أكون يوماً ناديته..
فقد هتف صوت ضارع في أعماقي: قف قليلاً.. قف ريثما أنتهي من
صلاتي.. ولكنه راح يبتعد أكثر فأكثر.. وذاب في لحظة ظالمة.. في
نقطة لا أذكرها، فقد ذابت هي الأخرى...

أتممت صلاتي، وأنا أعالج شعوراً يشبه حالة اليقظة الغادرة من
حلم. كنت مفلسة عاجزة، مستسلمة إلى إجهاض شعوري الذي ترك في
فضاء الروح والفكر هوة غريبة الشكل واللون والمعنى. وكان صغييري
إلى جانبي، يلهو بقطار ذي العينين السوداوين...

كان ذلك منذ سبع سنين.. وما زالت بقايا من قطار ذي العينين السوداوين بين لعب ولدي.. وما زالت تلك النظرات العطشى المأخوذة تستأثر بجوارحي، كلما وقع بصري على واحدة من القطع الملونة الزاهية، التي أردتها يوماً أن تكون من مصادر السعادة النادرة لي ولطفل لا أعرف منه سوى عينين، عشت فيهما ثواني، كانت أغلى من كثير من ساعات العمر وأيامه..

وما زالت رغبتي الموءودة تغتلي في صدري، وتلوب باحثة عن رغبة ذي العينين السوداوين، لتعتنق الرغبتان، وتبقيا في قلب الذاكرة، خسراناً لا يد لأَي مناهيه.

ولبثت زماناً، أتحرى تلك النظرات، في رحاب الحرم، وفي طرقات مكة وأسواقها، كلما لاح لي صبي في الرابعة، أسمر الوجه، سبط الشعر حالكه، يستوطن عينيه ليل غابات أفريقيا الوسطى، حيث لا يجد الصغار الكثير من القطارات الملونة المرحة.. لكنني لم أرها قط ...

أيتها العينان اللتان لن أنساهما.. ما كانت رغبتكما بأشد من حسرتي.. وكم أتمنى أن تكون الأيام قد أتاحت لكما من المتع ما يغنيكما عن قطاري الصغير الذي لم أستطع في ذلك اليوم أن أسعدكما بامتلاكه ...



خانتك عينك

كان يشعر بأنه يملك ما لا يملكه غيره، وإذا كان أكثر تواضعاً، لا يملكه الكثيرون.. ليست موهبته وحدها هي ما يميزه.. إنه تلك الروح النقية العاشقة للخير، الشغوف بالجمال.. إنه فكره الحر كأبدع ما تكون الحرية، المنطلق كأروع ما يكون الانطلاق.. إنها طريقته الفريدة في الحياة، تلك الطريقة الجريئة، التي تدفع بسخاء لا حدود له كل ما تملك ثمناً لما تؤمن به وتسعى إليه...

إحساسه بتفوقه لا سلطان له عليه، لكنه مهيمن بإحكام على نواذعه، وقد وعى خطر الغرور المتربص به، فأتخذ لذلك أهبتة، وأعد له أسلحته السرية، فلم يكتشف أي من المحيطين به كنه تلك الإطراقة المفاجئة، التي يعقبها اشترئاب خاشع، مشفوع بعبارة: الحمد لله.. الحمد لله.. يرددها كمن يتلذذ باستكشاف عوالم لا نهاية لها من الجمال، وآفاق لا حدود لها من الخير، الذي يمتعه ويرضيه، دون أن يسمح للغرور والكبر بتسميمه وإفساده.

كان يملك قدرة هائلة على العمل الدؤوب، فقد عود نفسه تجاهل صوت التعب مهما علا وجلجل، إذا كان يقوم بعمله، ولم يتح للنجاح الذي نال منه الكثير أن يدير رأسه، ويزين له الغرور، بل كان يتكلم عنه بتواضع أصيل فاتن، واقتضاب يزيد من سحر إنجازاته وقيمتها...

غاية سامية كانت تأسره، وتوجه دقة تفكيره وسلوكه، أن يظل ذلك الشاب الذي يظله الله بظله يوم لا ظل إلا ظله، لقد نشأ في طاعة الله وكنفه، ولم تطب نفسه إلا بمواصلة السير في تلك الطريق النظيفة الصعبة. وعلى الرغم من خطورة ميدانه الذي اختار، وإلحاح خياله الفريد في الإخلاص لدفائن نفسه المكنونة، وبسط خلجاتها، وترجمة نبضها بصدق وصراحة، فقد نجح في تطويع نوازعه لدواعي الخير والبر، ببراعة وإخلاص ومتابعة. فقد كان قراؤه نخبه من عليه الناس خلقاً وثقافة وذوقاً.

وشغلته دروب الكلمة المحاصرة الوعرة عن حياته وحاجاته، فقد استهلكت هموم الناس والأمة والوطن، وشؤون القلم وشجونه، في ذلك الزمان القاسي، رغائبه، وغيبت الكثير من آماله.. وكان كل من حوله يتساءل عن المرأة التي يمكن أن تحظى بقلب رجل مثله، المرأة التي تستطيع النفوذ إلى تلك الأعماق المرهقة المرهقة.. وكانوا يرسمون لها صوراً تترجم تقديرهم لما يليق به.. أما هو فكان شديد التكتم، طويل الصمت فيما يتعلق بهذا الأمر، حتى مع أقرب الناس منه، وأكثرهم ملازمة له.

وكان لا بد لهذا القلب أن يخفق، فمن أجل أمثاله كان الخفقان والحب.. وتعلق بها.. تافت نفسه إلى الاطمئنان في جنة صغيرة يجمع فيها ما تركته الحياة المقتصدة من بقايا الفرح.. رأى فيها طفولة وعفوية وتلقائية، وكانت ملامحها تشف عن نفس لا تعرف من الحياة إلا الضياء، وجد فيها واحة من رمضاء الحياة، وملاذاً وحصناً من أخطار قد تترصد صفاءه ونقاءه، في دروب عمله الخطيرة، واقترب

منها.. جنّ فرحاً بالنجم الذي سقط في حجرها على غير انتظار، وبهرته فرحتها واندفاعها وحماستها، وألهبت خياله، وحضته على العطاء، فأعطاه كل ما يملك، وكان ثروة، وكان كنزاً.. أغدق عليها كل دفته وحبه بلا حساب، كما يغدق على فكرة يؤمن بها، أو نبضة تختلج في عمق روحه. وكان في ظمأ إلى العطاء الواقعي الذي لم يعرفه إلا مع قلمه، وكان لسان حاله يقول: هنا فقط أطلق العنان لشعوري، كما أطلقه لها عندما أكون مع قلبي وأوراقتي...

أما هي فكان أكثر ما يستثيرها حسد لداتها، وتمنيهن أن يكنّ في مكانها، أن يحظين برجل فذٍّ مثله.. وتملكتها رغبة جامحة في فعل أي شيء للحفاظ على ذلك الكنز النفيس، وهدتها فطرة الأنثى فيها، والصدق والعفوية فيه، إلى كيفية إحرازه وإرضائه، إلى بذل الغالي والثمين من دون حساب؛ ليبقى لها.

أعطته الكثير مما رآته كفيلاً بأسره.. وظل ينتظر أن تعطيه ما يريد، ولم يستعجلها، فقد كان يعرف أن ما يريده، على بساطته، لا تجيد الكثيرات إعطاءه، وأنها لا بد أن تعرفه تماماً، لتعطيه ما يبحث عنه ويسعده...

وراح يعرفها نفسه.. وسرعان ما اكتشف أنها لا تحفل بذلك.. كأنما كان يكفيها منه ما تعرفه، ولا يعنيها أن تزيد عليه.. وحرص على تقديم نفسه التي لا تعرفها، فقد كان واثقاً بأن ذلك سيسعدها أكثر.. ولمست حرصه ذاك، فخضعت إلى رغبته؛ إرضاء له، وراحت تستمع إليه متصبرة، في انتظار دورها؛ لتعطيه ما تريد هي، غير ملتفتة إلى

ما يحتاج وما يريد.. وكان أكبر بكثير من أن تستوعب احتياجاته، أو تهدي إليها.. قد تكون قدمت إليه أكثر منها، أو أثمن، أو ما يفوقها كلفة.. لكنها لم تكن قط ما يريد.

شيئاً فشيئاً راحت الأمانى والأحلام تهزل وتموت تباً. وكان في البداية يحتمل مصابه فيها متجماً، مؤملاً أن يغنيه ما يأخذ عما يريد، ولكنه، برغم أنف رجائه، أخذ يقتنع بأن ما يطرح عليه من البدائل قد يسعد أي رجل غيره.. واستيقظت في حلقه غُصة كبيرة.. ونظر إلى الحبيبة، فألفاها تهوّل مبتعدة عن موقع القلم منه، بنفس السرعة التي يحلم أن تدنو بها من ذلك الموقع.. أن تدنو فحسب.. فهو لم يحلم قط بالمستحيل، وقد أدرك منذ زمان بعيد أن من المستحيل أن يبلغ أحد موضع حبه الأول.

وجثم على صدره همّ ثقيل، وامتلاّت نفسه المرهفة ألماً من نوع جديد.. أما وجدت فيه ما يخرجّه عن حدود النموذج الذي وضعت قواعد السعادة وفقاً له! وتململ حتى الخوف.. فالنفور.. إنه يرفض بعنف أن تطبق عليه قواعد يؤمن بها الجميع إلا إياه، واستيقظت ذاته، في دفاع عن تميزها الفطري، الذي لم يكن يملك أن يفرض فيه، إذا لم يسئ إلى أحد...

ألم تجد فيه أكثر مما وجدت! وجواهره الثمينة الثمينة، أين هي منها! إنها كل ما يعنيه لنفسه، إنها ما لن تجده عند سواه.. كل ما كررته على مسامعه عن تميزه واختلافه، وخصوصية معاملته، لا يعدو كونه يتمتع بالشهرة، وهذا يعني لها كل ما لا يعنيه أو يهمه.. إنه يعني

الأضواء والرفاهة والأسفار والتباهي! أما الروح التي وراء ذلك، فهي خاصة به، ولا تملك لها شيئاً، بل.. لا تهمها، ولا مكان لها بين مزايا ارتباطها به...

هل خدعها؟ هذا دأبه.. إنه يبحث عن الخطأ في نفسه قبل البحث عنه لدى الآخرين.. مسؤوليته أن يفهمها، أن من ترتبط به لن يكون لهذه الأمنيات في حياتها حظ يذكر، وقد لا يكون لها أي حظ...

وداهمه الحرص على دفء الحب بعد ما عصف به من رياح الفكر، وحصر همه في وسيلة رفيقة حنون، توصل إليها ما يريد، فهي أغلى من أن يتركها تعاني لاكتشاف ما يقدر على تقديمه إليها بلا تعب...

جمع شجاعته، وحشد كل ما يتمتع به من قدرة الأديب الفنان على الوصول إلى العقول والقلوب: الشهرة التي يتمتع بها قلبي، يا حبيبتي، لا أطفل عليها أبداً، ولا أسمح لنفسي أن أجنبي من ورائها أي مكاسب.. أما الأضواء التي تسلط على أعمالي، فلا أسمح لها أن تصل إلى خصوصيتي، إلا على أضيق النطق التي تقتضيها الضرورة.. وإذا كان لا يحق لي، وأنا أنشر خطرات فكري وخلجات روحي، أن أدعي أن حياتي ملك خالص لي، فأنا أقدمها كتاباً منشوراً، يقرؤه كلُّ كما يريد، ولا أقرؤه أنا لأحد.. وأما الرفاهة التي تتصورين، فلا يملكها أحد مبدع مخلص لنفسه وإبداعه.. وأما المكانة الاجتماعية فقرائي الذين يقدرون كلمتي أبعد ما يكونون عن الطبقة المخملية المسطحة التي لا أعترف بها، والتي تتبوأ قمة الهرم الاجتماعي الوهمي.. وأما التباهي فهو ملك لك، إن اقتنعت بي كما أنا، فملأت عليك نفسك...

استمعت إليه بنظراتها الطفلة التي يحب، وحيرته تلك المهاوي من الفراغ التي تراءت له من ورائها، وخادع نفسه مكابرًا.. فعلامات المفاجأة قد تختلط، ولا سيما في عنين طفلتين كعينيها، بعلامات الاستنكار أو الخيبة...

أرعبته الكلمات، لكنه ألجم الرعب، وراح يجاهد في تضمين لهجته من الحنان ما يطمئنها إلى أن ما يقوله لا يمس حبه الكبير لها، وهو ما يفترض أنه الأهم في الأمر.. وشعر بأنه قد نجح في تقديم نفسه على حقيقتها، من دون خداع أو تمويه.. وبخوف مبهم الماهية والأسباب، انتقل إلى حديث آخر.. أراد أن يعطيها فرصة للتفكير فيما قال، واستجابت بصمت، وانتهى اللقاء، كما ينتهي كل لقاء بينهما، بالاتفاق على موعد جديد...

ولم يرها بعد.. وقال له صاحبه، وهو يحاوره: يا صديقي، لقد خدع كلاكما بالآخر، رأيت شهرتك الواسعة وصيتك الذائع، وبهرها مظهرك الأنيق ووسامتك، فتصورت ما يحق لها أن تتصور.. ورأيت اهتمامها وجمالها وبراءتها، فتصورت ما يحق لك أن تتصور.

صمت شاردًا، وهو يحس أن واديًا سحيقًا يفرغ فاه بينه وبين دفء الحياة ومتعتها. ونظر أول مرة بتمعن إلى هناك، إلى الحافة المقابلة البعيدة البعيدة.. ومرت بخياله كومضة إمكانية العبور.. ثم مركبة واحدة، ثمن التذكرة فيها إخلاصه لنفسه وعشقه الأول والأقوى للقلم.. وفكر بمرارة وعجب.. هل أملك هذا الثمن؟!

تراءت له عرائس قلمه، ونبض قلبه، وذكريات المشاعر الحية الحرة المدلّة، التي أدمنت وداده وإخلاصه، ونكهة استفراغ الأحاسيس،

حلوها ومرها، وهي تتسكب من روحه وكيانه على الورق، ولحظات
وساعات وليالي العشق الطويلة للحرف، عندما يغوص في أعماقه
يستنطقه الفكرة والإحساس.. وأيقن، بما لا يدع مجالاً للشك، أنه
أسير ذلك الحب الأبدي، وأنه لا يملك القدرة على المساس به مهماً
كان الثمن ...



obeikandi.com

زوجة قائد

- ١ -

أبو محجن الثقفي

أصواتهم تملأ أذني، والجلبة تتسلق الهضبة، والليل، وجدران
المحبس المحروس، وتناديني.. كل ما في يشتعل، وأنتزع جسدي من
الفراش، بل يلفظني الفراش برماً بالحرب العبيثة الضروس التي
أخوضها منذ ساعات فوقه.. يموت الحلم المسخ في مهده، وتصحو
أثقال كالجبال تشدني إلى الأرض.. أما الأصوات فهي ما تنفك تناديني،
ولا تترك لي وقتاً حتى للآلم...

جرجرت جسدي الثقيل الذي لا أسكنه إلا وقت النوم.. فقععت
قيودي البليدة، فلم آبه لها، ولم يعني كثيراً أنها ستوقظهم، وربما قلت
لنفسي: فليفتعل.. فتح أحدهم مصراع نافذة فأطل الليل كله، وتأفف
بصبر نافذ: ألا تدعنا ننام؟ ما زال الفجر بعيداً...

ولم أرغب في الكلام، فلبثت في مكاني متموتاً.

كم بيننا وبين الفجر؟! كم بيننا وبين تلك الساعة التي تشهد منذ
أيام تحرقي وانسحاقني تحت ضربات مطارق الندم؟ أيتها الجرعرات
القاتلة.. كل هذا ثمن! كل هذا!! وانخلع قلبي، ﴿فَاسْتَغْفِرْ رَبِّهِ، وَخَرَّ رَاكِعًا
وَأَنَابَ﴾: غفرانك.. غفرانك.. غفرانك..

احتقنت أجفاني، انبعث منها رماد حار واخز، وأحسست أن كلاً منها سور ليس له باب، داخله فيه العذاب، وخارجه ذلك المشتهى المحرم، ذلك الشوق الذي تصميني سهامه، غير مبالية بتحرقى إلى الموت على شفار السيوف، في عناق تبقى لذته في الوجدان خالدة... أيها الموت.. أريدك هناك.. أريدك معهم.. في تلك الساحة التي تتطلق منها الطريق إلى رضا الله وفردوسه، أريدك خطوة إلى الحياة الحقيقية، إلى الخلد الموعود، إلى إعلاء كلمة الله.. لن تأخذني من هنا كمدًا.. لن تفعل أبدًا...

أطلقت عيني عبر القضبان الحديدية إلى السماء، وتجاهلت المرجل الموجه، عللت بكل ما أملك من الإحساس بالقهر والندم والألم، وانصرفت إلى ذلك الصديق الذي أثق به: الآن يا عمرو.. يجب أن تهتدي إلى الطريق. سؤال واحد ينبغي أن تجيبه قبل بزوغ الفجر.. قبل بزوغ الفجر! هل يحتاج الأمر إلى التستر؟! أجل، فساعد هنا.. يا لليلة! لو أنه في الميدان لكان الأمر أكثر سهولة.. لكان في مكنتي الهرب إلى الميدان، وليس من الصعب تجنب سعد هناك، حتى إذا ما علمت بتوجهه إلى محبسي وأغلالي.. ولكن! لم لا أقوم بذلك الآن؟ أخرج ليلاً وأعود عند الفجر؟

بقي السلاح والفرس.. أما السلاح فمبذول كثير، ويمكنني أخذ ما أشاء منه بتدبير بسيط، وأما الفرس! فما أجد، لتحقيق حلم يراودني منذ وصلت القادسية، أفضل من هذا الظرف.. البلقاء فرس سعد، الحبيسة مثلي، المشوقة إلى الميدان مثلي، المتحرقة إلى وطء هؤلاء

الأشرار المتطاولين، مثلي.. واثق أنا بأنها في حاجة إلي تمامًا، كما أنا في حاجة إليها...

والآن أستطيع التفرغ لتدبير أمر الهرب.. من ذا الذي يقدر على مساعدتي؟

وومضت صورتها كالبرق.. ملامحها السمحة القوية توهي بالثقة، ولكن.. هل يمكن امرأة مثلها أن تعطي نفسها حرية التصرف من دون الرجوع إلى زوجها، وهو القائد، والحاكم هنا؟! ولم لا؟.. أليست أم ولد سعد الأثيرة التي يحرص على اصطحابها في السلم والحرب!

عُرام رغبتني يجرف كل العقبات دون التجربة.. حتى لو لم أنجح، حتى لو لم تستجب إلي توسلاتي، حتى لو علم سعد بما فعلت، فلن أخسر الكثير.. إنها الفرصة اليتيمة التي تبرق في حافات ليل اليأس الثقيل.

الفجر تعفي على شحوبه الفضي الهش شمس الصباح المتقحمة الجسور، تغمر الهضبة المشرفة على السهول وميدان المعركة.. كل همي الآن أن يغطي ضياء الشمس ذلك المنبسط على يمين الباب الفرعي للقصر، وتخرج النسوة للتمتع بدفئها. سعد من نافذته لا يستطيع رؤية تلك المساحة المحاذية للجدار، وعلي التحايل للوصول إلى هناك.. تلك الخادمة العجوز التي تجلس هناك بعض ساعة كل صباح.. ما من وسيلة سواها للوصول إلى زوجة القائد.

جر جرت قيودي أختصر المسافة التي تقطعها المرأتان للقائي..
 اقتربنا واقتربت، وقد نسيت كل شيء حتى عريدة أنفاسي في صدري..
 وقفت أمام زوجة القائد لاهناً، أو متشاغلاً باللهات، لأجمع شتات
 نفسي. وكان حديثاً سريعاً مسروقاً من الأعين والآذان، فهو البلاغ، ولا
 شيء إليه: هل لك إلى خير؟

رمتني بنظرة مستطلعة مستغربة: وما ذاك؟!

- تخلين عني، وتغيريني البلقاء، فله علي، إن سلمني الله، أن
 أرجع إليك حتى أضع رجلي في قيدي، وإن قتلت استرحتم مني.

لم تكذ عبارتي الراجية تنتهي حتى أدركت مبلغ المفاجأة التي
 أفصحت عن ملامحها.. وانكششت وقد ملأني الارتباك والندم
 على تسرعي وتطاولي، بل وقاحتي.. ألقت زوجة القائد نظرة أخرى
 متسائلة، فأدركت ما لم تشأ أن تقوله: ما الذي يبرر كمية الثقة اللازمة
 للتفكير فيما سألت! وقرأت خلف الصمت: أنت، كما أعرف، متهم
 بشرب الخمر، ولعل من غير الصواب أن أثق بك. وتحولت عني، في
 مزيج من الإشفاق والحذر والزجر: وما أنا وذاك؟ واستدارت مبتعدة..
 نظرت فلم أرَ إلا ظهر الخادمة العجوز تتقلقل، لاحقة بسيدتها. ولبثت
 حيث أنا، فقد كانت أغلالي ثقيلة كأعظم جبال الطائف، ولم أستطع،
 وقد غادرتني شحنة الأمل المَحْيِية، زَحَزَحَتْهَا.

- ٢ -

سلمى بنت حفصة

- يجب أن تلزم الفراش يا سعد.. أنت هكذا تطيل أمد مرضك.
- أنى لي هذا، والميدان شعلة تتصاعد حتى السماء! والقلب يثب في الصدر حتى يكاد يقوضه! وعبارتك الظالمة تطرد النوم كلما سولت له نفسه الدنو من أجفاني.
- كانت نفثة فجّرتها الغيرة على جند الله، ولم أقصد الإساءة إليك.
- لو كانت هذه الرعدة الخبيثة رجلاً لفلقت رأسه بسيفي.
- يا لسعد ويا لحوارنا الذي مللت!.. لن يترك السطح إلا محمولاً على أيدي الرجال ضعفاً وإعياء.. ما الذي يراه والليلة لا قمر فيها؟!
- أصوات الميدان لا تبدد وحشة الليل، بل تزيدهما.. ولا أحد أبادله الحديث.. ولا نوم يسمح به القلق وجلبة سعد ورجاله. يجب أن أجد مخرجاً من هذه الحالة المرهقة.
- ليس هذا فقط ما يسرق النوم من عيني، فهناك ذاك الفارس الكسير! إلى كم من النذالة والانهازامية والجبن احتجت لكي أصنع ذلك المزيج العجيب من الرجولة والانكسار! وإلى كم من الأيام، وربما السنين، سأحتاج للتخلص من العذاب الذي ملأني به انكساره ووجومه! لو أنني كنت أكثر روية.. لو أنني أتحت له المزيد من الوقت، فربما كان

لديه ما يقوله، وربما كان من الخير أن أجيب ما طلب.. ما العمل الآن، وأنا لا أستطيع لهذا الإحساس بالذنب دفعاً؟!

أعالج فضولاً عجيباً لمعرفة ما آلت إليه حاله، فقد أجد بعض العزاء إذا ما عرفت أنه ليس ذلك الإنسان المرهف، الذي يجرحه ما قابلت به رجاءه من برود وصلف، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟

يا للأرق وما يثيره من أفكار، وما يبعثه من شجون! ويا للوحدة وما تنسج من ملأءات الكآبة والقلق حول الروح والقلب! لعل شيئاً من نسيم ليل العراق البليل يحمل إلى جفني النعاس، فأريح النفس والجسد بغضوة قبل انبلاج الفجر.

يا لليلة! ويا لجلبة أولئك المتمردين المحتجزين!.. كان أحدهم ينشدهم شعراً.. ماذا يقول سجين في معركة لا يجد فيها سيفاً، ولا يمتطي فرساً، ولا يواجه عدواً!.. ليت سعداً يعفو عنهم، ويلحقهم بالمجاهدين، فقد نالوا ما يستحقون من عقاب، جزاء ما أحدثوه من بلبلة وفوضى في صفوف الجيش...

ليتني أستطيع سماع ما يقول ذلك المنشد.. أستطيع ذلك إذا نزلت إلى الشرفة القريبة من محبسهم...

... حسناً من هنا يمكنني ...

أنصت ولا تعقب يا هذا.

حسن.. أكمل يا أبا محجن...

أبو محجن!! ما أعجب هذه المصادفة!

فَلِلَّهِ دَرِّي يَوْمَ أَتْرَكُ مُوْتَقًا

وَتَذْهَلُ عَنِّي أَسْرَتِي وَرَجَالِيَا

حَبِيسًا عَنِ الْحَرْبِ الْعَوَانِ وَقَدْ بَدَتْ

وَأَعْمَالُ غَيْرِي يَوْمَ ذَاكَ الْعَوَالِيَا

وَلِلَّهِ عَهْدٌ، لَا أَخِيْسُ بَعْدِهِ

لِيْنُ فَرَجَتْ أَلَا أَزُورَ الْحَوَانِيَا

... لقد سمعتك أيها الفارس.. وما أحسبك إلا قصدت إلى ذلك

قصدًا ...

أما النوم، فما عاد إليه من سبيل، وأما خطئي، فأسأل الله أن ييسر لي السبيل إلى التكفير عنه.

ما مرّ بي سحر، ولا فجر أطول مما مرّ بي في يومي هذا.. لماذا تتضاعف المسافة، ويتطاوّل الزمن دائمًا بيننا وبين ما ننتظر! لماذا تبعد الأشياء عندما نمد إليها أيدينا! أيكون ذلك اختبارًا، لتصميمنا وعزيمتنا وصبرنا، نستحق بعده التلذذ بالوصول إلى الغاية!

- ٣ -

سعد بن أبي وقاص

إلى متى ستلازميني أيتها القشعريرة المقيتة؟ أيها الوهن العنيد، ما أضعفني أمامك! أنا الذي أقف أمام جيوش فارس غير

هيّاب.. لا رجل بلا سلاح اليوم إلا أنا، وهؤلاء المتمردون الأغبياء،
وذلك الشاعر السكير الفار من ابن الخطاب...

أين تتوارى تلك المرأة التي لا يمكن تجاهلها!... : سلمى.. أنت
الأخرى أصبحت تدمنين النظر من الشرفات؟

- ومتى كفت عن ذلك ما دارت المعركة! ولكن الليل لا يسمح برؤية
ما يجري هناك.. ألا تلزم الفراش يا سعد؟ يجب أن تبرأ سريعاً،
فقد طال غيابك عن الميدان...

- أنت لا تفكين تردددين ذلك.. كأني بك ما تزالين تتهميني بالتعلل
بالمرض...

- كم مرة يرضيك أن أعتذر بعد؟ كان موقفاً مرّ بي فيه هاجس
صارحتك به...

- حسن.. لن أستطيع لزوم الفراش الآن.. سأصعد السطح؛ عله
يسمح برؤية أفضل، فقمر الليلة لا يعد بما ينقع الغلّة...

لقد بتُ ضيق الصدر نافذ الصبر.. أعرف ما يخيفني إلى حد
الهلع.. يا رب السماوات والأرض، منذ يوم الخندق وأنا أحلم بفتح
فارس.. كأنتي أراها، هنا في القادسية، ومضة معول رسول الله ﷺ
وقد ضرب صخرة الخندق، وكأنتي أسمعها، هنا في القادسية، تكبيرته
وهو يبشرنا بفتح فارس.. لقد عاش الحلم معي عشرًا من السنين، فهل
يموت اليوم، وأنا قاب قوسين أو أدنى من تحقيقه!

أهو الظلام يكاد يلبس علي ما أرى!.. أم هو الشوق إلى الميدان
وصهوة البلقاء.. فارس الأمس وفرسه.. لم أكن واهماً إذًا، وهذا الذي
أرى حقيقة، وليس من نسج الخيال أو وهمه...

أي فرس تلك التي تشبه البلقاء هذا الشبه العجيب.. و تماثلها
حتى أكاد أشك في كونها البلقاء عينها. وأي فارس هذا الذي يفعل على
صهوتها الأفاعيل! كأنتي أرى فارس ثقيف أبا محجن...

لك الله يا ابن الوقاص.. لقد غادرت الفارس والفرس كلاً في
محبسه وقيد، إنها العلة تلبس عليك المرثيات، وليس الظلام.. سلمى
على حق، وسألزمت الفراش متى تحاجز الناس، وما أظن ذلك بعيد،
فقد انتصف الليل.

سلمى مستسلمة إلى النوم، لقد أرهق تواصل القتال، حتى من لا
يباشره، وسأوي إلى فراشي بعد رؤية ابن عرفطة؛ لأعرف ما لم أستطع
استجلاءه من مرقبي هذا.

هل تحاجز الناس يا سعد؟

- لست بنائمة إذًا؟

- وأنى أستطيع، وأنا أسمع قعقعة السلاح، وتنادي الفرسان،
واصطكاك أسنانك ورعدتك!

- سأوي إلى الفراش بعد رؤية ابن عرفطة.

- فما كان آخر ما رأيت؟

- إنها جولة شديدة الوطأة، ولكن الله قيض للمسلمين فارسًا ما استطعت أن أعرفه، أبلى بلاء المتعطش اللفهان، فاحترت في أمره، وظننت فيه الظنون، فقد شبه لي، كما شبهت لي فرسه، حتى خيل إلي أنني أمام أبي محجن والبقاء.



منشورات رابطة الأدب

الإسلامي العالمية

- ١- من الشعر الإسلامي الحديث، لشعراء الرابطة.
- ٢- نظرات في الأدب، أبو الحسن الندوي.
- ٣- ديوان «رياحين الجنة» عمر بهاء الدين الأميري.
- ٤- دليل مكتبة الأدب الإسلامي في العصر الحديث، د. عبدالباسط بدر.
- ٥- النص الأدبي للأطفال، د. سعد أبو الرضا.
- ٦- ديوان «البوسنة والهرسك»، مختارات من شعراء الرابطة.
- ٧- لن أموت سدى «رواية»، الكاتبة جهاد الرجبي.
- ٨- ديوان «يا إلهي»، محمد التهامي.
- ٩- يوم الكرة الأرضية «مجموعة قصصية» د. عودة الله القيسي.
- ١٠- ديوان «مدائن الفجر» د. صابر عبدالدايم.
- ١١- العائدة «رواية»، سلام أحمد إدريسو.
- ١٢- محكمة الأبرياء «مسرحية شعرية» د. غازي مختار طليمات.
- ١٣- الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني، د. حلمي القاعود.
- ١٤- ديوان «حديث عصري إلى أبي أيوب الأنصاري» د. جابر قميحة.
- ١٥- ديوان «في ظلال الرضا»، أحمد محمود مبارك.
- ١٦- في النقد التطبيقي، د. عماد الدين خليل.
- ١٧- الشيخ أبو الحسن الندوي، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.

- ١٨- القضية الفلسطينية في الشعر الإسلامي المعاصر، حليلة الحمد.
- ١٩- د. محمد مصطفى هدارة، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.
- ٢٠- معسكر الأرامل «رواية مترجمة عن الأفغانية» تأليف مرال معروف، ترجمة د. ماجدة مخلوف.
- ٢١- قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم «دراسة أدبية»، محمد رشدي عبيد.
- ٢٢- قصص من الأدب الإسلامي «القصص الفائزة في المسابقة الأدبية الأولى للرابطة».
- ٢٣- أدب المرأة .. دراسات نقدية من بحوث الملتقى الدولي الأول للأدبيات الإسلامية.
- ٢٤- الآمال صارت آلاماً، رواية من الأدب التركي، تأليف د. نور الله كنج، ترجمة د. عوني لطفي أوغلو.
- ٢٥- نحو كوكب الحرية - رواية من الأدب الفارسي، تأليف محمود حكيمي، ترجمة عثمان أيزدبناه.
- ٢٦- مملكة النحل - رواية من الأدب التركي - تأليف علي نار، ترجمة كمال أحمد خوجه.
- ٢٧- أقباس - ديوان شعر - طاهر العتباني.
- ٢٨- الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية الحديثة - د. كمال سعد خليفة.
- ٢٩ - عقد الروح - ديوان - شعر نبيلة الخطيب.
- ٣٠- المفسدون في الأرض - مجموعة قصصية- فاطمة محمد شنون.



صدر في سلسلة أدب الأطفال

- ١- غرد يا شبل الإسلام - شعر - محمود مفلح.
- ٢- قصص من التاريخ الإسلامي - أبو الحسن الندوي.
- ٣- تغريد البلابل - شعر - يحيى الحاج يحيى.
- ٤- مذكرات فيل مغرور - د. حسين علي محمد.
- ٥- أشجار الشارع أخواتي - شعر - أحمد فضل شبلول.
- ٦- أشهر الرحلات إلى جزيرة العرب - فوزي خضر.
- ٧- باقة ياسمين - قصص للأديب التركي علي نار - ترجمة شمس الدين درمش.
- ٨- أغنية للقيمة البعيدة - شعر - أحمد زرزور.
- ٩- مغامرات عصفور - قصص - عبد الجواد الحمزاوي.
- ١٠- شيما - قصص - حسن القشتول.
- ١١- مدينة الرحمة - مسرحية - محمود عبدالله محمد.
- ١٢- بيض من ذهب - مسرحية - لطفي عبد المعطي مطاوع.
- ١٣- سجين الهاء والواو - مسرحية - محمد عبد الحافظ ناصف.

● تطلب من رابطة الأدب الإسلامي العالمية:

المملكة العربية السعودية: الرياض ١١٥٣٤ - ص.ب. ٥٥٤٤٦

هاتف: ٤٦٣٤٣٨٨ - ٤٦٣٧٤٨٢ فاكس: ٤٦٤٩٧٠٦

web page adress: www.Adabislami.org

E-mail: info@adabislami.org

المؤلفة في سطور

- فاطمة محمد شنون.
- من مواليد حلب / سورية عام ١٩٥٠م.
- حصلت على الإجازة في اللغة العربية وآدابها، ودبلوم الدراسات العليا من جامعة حلب.
- عملت في التعليم العام.
- شاعرة وكاتبة للقصة القصيرة، وأدب الأطفال.
- صدر لها عدة كتب منها:
- موكب النور في عدة أجزاء، رواية لليافعين.
- جلجامش - شعر.
- معلمتي السوداء الصغيرة جداً - للأطفال.
- المفسدون في الأرض - مجمعة قصصية فازت بالجائزة الأولى في مسابقة الأديبات بالرابطة.
- فازت بالجائزة الأولى في مسابقة نشيد طيبة للأطفال، التي أجرتها مركز بحوث المدينة المنورة لعام ٢٠٠٨م.
- لها العديد من المشاركات في الدوريات العربية، ومنها مجلة الأدب الإسلامي.
- عضواً رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

